سلسلة روايات الجيب

فتاة الثلج

أ - ١٢٤

A - 124

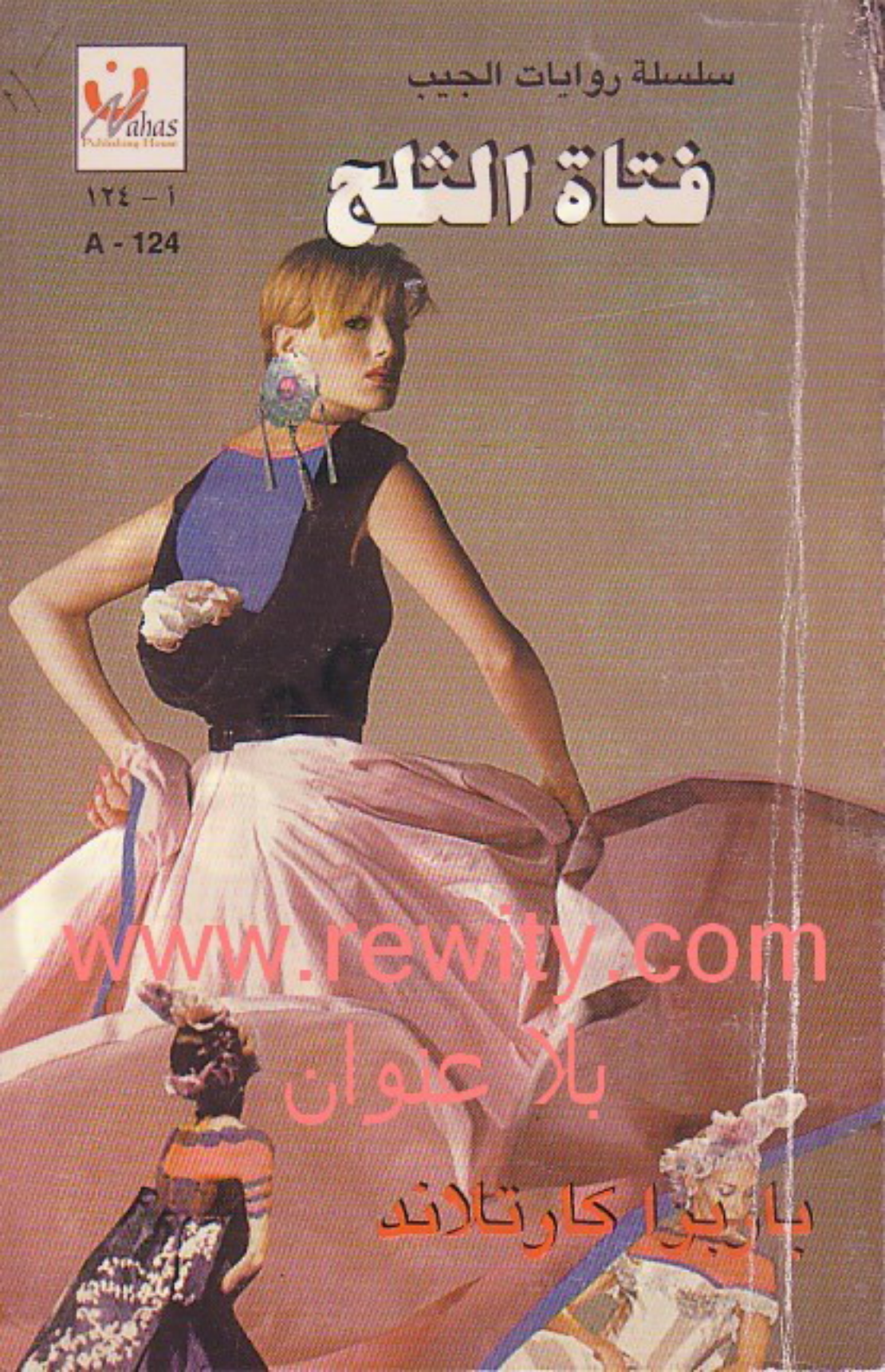

www.rewity.com
بلا عنوان

باربرا كارتلاند

الفصل الأول

١٨١٢

اجتاز السيد ويلمنستر الغرفة نحو النافذة حيث أزاح الستائر ووقف ينظر منها إلى الخارج حيث كانت أشعة الشمس المائلة للغروب، والتي سرعان ما ستتحول إلى شفق أحمر ينعكس على النهر، بينما الآن تنعكس على صفحة المياه أبراج وشرفات القلعة.

لكنه، في هذه اللحظات، لم يكن يفكر في جمال مدينة بيترسبورغ، والتي كانت قد أدهشته قبلاً بهندسة أبنيتها، وإنما في الجيش الروسي الذي ينتظر قرار قائدهم بالنسبة إلى الاتجاه الذي ينوي الفرنسيون التقدم اليه.

وقطع تأملاته صيحة احتجاج ناعمة صادرة عن امرأة وهي تسأله:

«هل نسيتني؟ إنني ما زلت هنا.»

نطقت المرأة باللغة الانكليزية ولكن بلكنة روسية، فاستدار وعلى شفتيه ابتسامة.

كانت الاميرة كاتارينا باغريشين جميلة جداً دون شك. لا بل واحدة من أجمل النساء اللاتي عرفهن.

ولم يستغرب السيد ويلمنستر، اختيار القيصر الكسندر

الأول لها للتجسس عليه، وكان هذا ما أدركه في اللحظة التي وصل بها إلى بيترسبورغ.

كان السيد ويلمنستر يتمتع بخبرة بالغة في تخطيط المؤامرات وكان قد اعتاد على نقل رسائل دبلوماسية، بصفة غير رسمية، وبنجاح لا مثيل له، لذا لم يندهش عندما أرسل رئيس الوزراء لورد ليفربول بطلبه، ليقول له: «أريد منك العون، يا ويلمنستر، وأظن بإمكانك التكهن باسم المكان الذي سأرسلك إليه.»

فكان أن أجاب: «إلى روسيا.»

فقال رئيس الوزراء: «بالضبط.»

تدخل هنا سكرتير وزارة الخارجية اللورد كاستلريغ قائلاً: «إذهب يا ويلمنستر واعلمنا بما يجري هناك. فالتقارير التي أتلقاها تناقض نفسها إلى درجة لا أعرف معها رأسي من قدمي وذلك بالنسبة إلى البلد الغامض.»

كان الضيق واضحاً في صوت سكرتير وزارة الخارجية، فأدرك السيد ويلمنستر السبب من وراء ما يشعر به من احباط.

ذلك أن تصرفات القيصر الكسندر في السنوات القليلة الماضية، اربكت ليس الانكليز فقط، بل معظم دول اوروبا.

حتى ان نابوليون بونابرت قد يكون معذوراً إذا هو وجده غامضاً صعب الفهم.

كان خلال السنوات الأولى من حكمه متردداً غير واضح وقد تركز اهتمامه بنابوليون وبنجاحه العسكري المذهل، والذي بث الاضطراب في اوروبا بأجمعها.

ولم يستطع القيصر أن يقرّر فيما إذا كان عليه أن ينضم

إلى المتحالفين ضد فرنسا، أم يتبع خطى والده في سياسة الصداقة معها.

وكان نابوليون في الواقع، قد اقترح على القيصر بول، والد الكسندر، أن على روسيا وفرنسا اقتسام العالم. ولكن عندما مرّغ بونابرت شروط معاهدة أميون في التراب، كتب قيصر روسيا بأنه أحد أشهر الطغاة الذين أنجبهم التاريخ.

بعد كارثة الأوسترليتز عندما قاد القيصر الكسندر البالغ من العمر الثامنة والعشرين، جيشه بصفته القائد العام، وتلقى تلك الهزيمة النكراء، خانته شجاعته.

لقد هرب بمفرده من ساحة المعركة، مشيّاً على الاقدام إلى أن انهار تحت شجرة تفاح حيث أخذ يجهش بالبكاء. ومع أنه حاول أن يجد لنفسه عذراً، وذلك بلوم النمساويين، فقد تلقى الروسيون هزيمة أخرى في فريد لاند.

في ذلك الحين، أدهش الكسندر الروسيين بتوقيعه على معاهدة الصداقة مع الفرنسيين، يتعهد فيها بالمشاركة في الحصار الأوروبي المفروض على انكلترا.

وقد أحدث هذا الأمر استياء شعبياً عارماً نحوه في روسيا، هذا إلى أنه بعد انتصارات الامبراطورة كاترين، لم يكن باستطاعة الروسيين تكييف أنفسهم مع تلك الهزائم المتتالية.

لقد كان الملك الكسندر، في السنة الماضية، قد امتثل لرغبة شعبه عندما رفض ارسال القوات للقتال بجانب الفرنسيين، والأكثر من ذلك، رفضه إقفال الموانىء الروسية في وجه السفن المحايدة كما تنص عليه معاهدة الحصار ضد انكلترا.

www.rewity.com

وكان جنرال شهير قد قال للسيد ويلمنستر في لندن: «لا يمكنني تجنب التفكير في أنه إذا تطلب الأمر تصفية حسابات بين الفرنسيين والروس، فإن الروس سينهزمون أمام جيش نابوليون.»

وكان السيد ويلمنستر قد مال إلى الاقتناع بهذا الكلام، في ذلك الحين، ولكنه الآن وهو في روسيا ابتدأت الشكوك تراوده.

وفي الأمس، عندما جعله القيصر يرى رسالة من روستوبشين، وهو حاكم موسكو، وجدما جاء فيها مقنع للغاية.

وقد كان في رسالة الحاكم ما يلي:

«لديك، يا سيدي، نصيران قويان هما الجوّ، واتساع المسافات. إن الامبراطور الروسي سيكون التغلب عليه في موسكو صعباً، ومنيعاً في كارزان، ورهيباً في توبولسك.»

وصرخت به الأميرة كاتارينا بحزم: «كفى تفكيراً في الحرب، يا بليك. فهناك أشياء أكثر تشويقاً يمكنني التحدث بها إليك.»

وكان بليك ويلمنستر يعلم فحوى مثل ذلك الحديث، فأجابها قائلاً:

«أرى الوقت قد حان لعودتك.»

«ليس ثمة ما يدعو إلى العجلة.»

«من الأفضل لك ان تعودي.»

فضحكت الاميرة، وكانت ضحكة خافتة، ثم قالت: «لم يفكر أحد من قبل بما هو أفضل لي، أم لعلي أسبّب لك السأم؟»

وكان واضحاً أنها ترى ذلك مستحيلاً، فأجاب بليك وفي

صوته نبرة ساخرة: «وهل من الممكن أن أكون قليل الذوق إلى هذا الحد؟»

فقالت: «انني لا أجدك كذلك أبداً.»

ثم أخذت تتكلم بالفرنسية وكأنها تجد الحديث بتلك اللغة، أكثر سهولة.

وفي سانت بيترسبورغ، كانت الفرنسية لغة النبلاء، وتحتل الثقافة الفرنسية المركز الأول فيها. وكان احدهم قد قال لبليك عند وصوله: «ليس ثمة طعام يؤكل على المائدة إذا لم يكن الطاهي فرنسياً، ولا ثوب يلبس إذا لم يكن باريسياً، ومع هذا ليس ثمة شخص في المدينة لا يشتم بونابرت ويتعاطف مع اللورد نلسن.»

وقال لها بالفرنسية: «أرى ان تتركيني يا كاتارينا الآن.»

فقالت بنزق: «لماذا كل هذه الجدية؟ وبعد، ما أهمية روسيا بالنسبة إليك؟»

فأجاب: «إنها حليفة لنا، رغم تردّدها نوعاً ما.»

فضحكت كاتارينا وهي تقول: «أخبرني عما تريد معرفته عن حليفتكم، فأعطيك الجواب الصائب.»

فأجاب: «إنني واثق من هذا. ولكنني أتساءل ما قد تكلفني مثل هذه المعلومات.»

عادت كاتارينا تضحك، كانت تعلم جيداً أن بليك لا يجهل سبب تعرفها عليه منذ وصوله إلى قصر الشتاء.

في الواقع، كان بليك يتوقع التعرف عليها.

فقد كان السيد كاستلريغ قد قال له في لندن: «إنك تعلم طبعاً، أن القيصر يستخدم النساء في بيترسبورغ للتجسس على سفيرنا أو أي مبعوث آخر نرسله إلى روسيا.»

www.rewity.com

وعندما رأى الابتسامة التي ارتسمت على شفتي بليك، أضاف قائلاً: «هذا لا يعني أن ذلك سيكون شيئاً جديداً بالنسبة إليك، يا ويلمنستر.»

فأجاب بليك: «إنني اعترف بأن مثل هذا الأمر قد حدث في الماضي. وبما أنني سمعت عن النساء في قصر بيترسبورغ، فأنا في غاية الشوق للذهاب إلى هناك.»

فقال سكرتير الوزارة: «ولكن حذار.»

فسأله: «حذار من ماذا؟ أهو من افشاء أسرار الدولة التي أظن معظمها قد سبق وعرفها الروسيون؟ أم من أن أعجب بأحداهنّ؟»

فأجاب السيد كاستلريغ: «هذا الأمر الأخير ليس من اختصاصي.»

كان بليك يتوقع أن يرى أية امرأة، ولكنه وجد أن عليه أن يمنح القيصر علامة كاملة لحسن اختياره لهذه الأميرة.

والواقع أن بليك كان قد سبق له وعرف الكثير عن كاتارينا باغريشين هذه. فهي نصف روسية ونصف بولندية وفي العشرين من عمرها متزوجة من جنرال يكبرها سناً بسنوات كثيرة.

وحيث انها كانت أميرة أصيلة، إذ كان الدم الملكي يجري في عروقها، فقد تبوأت، وزوجها من القصر الملكي مقاماً رفيعاً.

وكان القيصر هو الذي طلب من وزير خارجيته استخدام مثل هذه المرأة في التجسس وذلك نظراً لشدة ذكائها. وكان بليك قد سمع بما حدث عند أول مهمة تولتها كاتارينا.

كانت مهمتها الأولى تتطلب منها الترحيب بالسيد

مترنيش، إنه المفوض النمساوي إلى درسدن، والذي أصر الدبلوماسيون الروسيون على أنه أبعد بكثير من أن يكون رجلاً هاماً.

إذن، فقد كان السيد مترنيش، والذي كان في ذلك الحين شاباً غير معروف تقريباً، قد وصف في الملفات السرية في الكرملين بأنه الصديق الحميم لامبراطور النمسا.

وكانت الاميرة كاتارينا، ذات الدهاء المتواري خلف وجهها الطفولي، قد قامت بزيارة المفوضية في درسدن. وعندما فتح الخادم الباب لها، صادف مرور السيد مترنيش في الردهة.

كان يتوقع أن يرى مبعوثاً من القصر الامبراطوري قادماً بأخبار هامة، وإذا به يرى امرأة تقف في عتبة الممر الذي تحف به أشعة الشمس.

وهكذا تمّ التعارف بين السيد مترنيش والأميرة كاترينا، وكان الدوق قد تدرب على تدوين كل ما يسمعه من معلومات عن الناس وحفظه في الملفات، وخصوصاً ما يتعلق بالديبلوماسيين. وهكذا، حالما تعرف إلى الاميرة كاترينا في قصر الشتاء، تذكر كل ما كان لها مع السيد مترنيش.

وبعد ذلك بعشر سنوات، كان واثقاً من أن القيصر قد اختارها للتجسس عليه هو هذه المرة، وذلك بعد نجاحها في مثل هذه المهمات مع الكثير من الديبلوماسيين الأوروبيين البارزين.

كان واثقاً من أن المخابرات الروسية قد قدمت بشأنه تقريراً بأنه صعب الارضاء تماماً بالنسبة إلى النساء، وأنه أكثر العازبين عناداً.

www.rewity.com

ولكنه عندما تعرف على كاترينا، أعجب بها.

لقد كانت صغيرة السن حين تعرفت على السيد مترنيش، ولكنها الآن، حسب رأي بليك، قد استحالت إلى امرأة قد صقلتها الثقافة، ما جعلها مثار اعجاب كل من يتعرف عليها.

لقد استمتع بتبادل الأحاديث الذكية معها، وهو المعروف عنه بقسوته حيال الشخص الذي يثير اشمئزازه.

سألها: «ما الذي تفكرين فيه، يا كاتارينا، عندما لا تكونين في العمل؟»

نظرت إليه لحظة بشك، ولكنها لم تتظاهر بعدم فهم التمليح الذي ينطوي عليه هذا السؤال، فأجابت: «إنني الآن أفكر بك، وليس ثمة سبب يجعلني أفكر بنفسي.»

فرأى في هذا الجواب مبلغ براعتها في المراوغة. وما الذي كانت ستفكر فيه، إذا كانت حالياً لم تتلقَ أية تعليمات من القيصر.

وألقى نظرة على الساعة المذهبة الموضوعة على رف المدفأة.

كانت هذه واحدة من مئات الساعات النادرة التي تزين أقسام قصر الشتاء الذي يمتد، بطبقاته الثلاثة، على مساحة نصف ميل، وكانت جزءاً من مجموعات القيصر بيتر.

قال لها: «لقد وعدت القيصر بأن أتناول معه طعام الافطار في الصباح، وإلى ذلك الحين، أنوي أن أنال قسطاً من النوم، يا كاتارينا.»

قالت: «تصبح على خير، أيها الانكليزي.»

ابتسمت ثم سارت نحو الباب ودون أن تنظر خلفها، خرجت واغلقت الباب.

بقي بليك جامداً مكانه لحظة، ثم دخل سريره وأغمض عينيه، ولكنه وجد أن النوم الذي كان يبغيه، قد جفاه.

كان ذهنه ما زال يعمل، ليس في كاتارينا، ولكن في روسيا وجيش فرنسا الكبير المؤلف من ستمائة ألف جندي قوي يلقي الرهبة في النفوس.

ولكن بليك أخذ يحدث نفسه بأن ثلث الجنود في ذلك الجيش كانوا من الألمان المجندين بالاكراه من بلادهم.

أول شيء عرفه عند وصوله إلى بيترسبورغ هو أن القيصر الكسندر تملكه الذهول عندما علم بأن نابوليون قد توجه نحو عاصمة روسيا.

لم يخطر بباله قط أن الامبراطور سيحاول حقاً السير إلى موسكو، وجزع وهو يتصوّر المجزرة التي لن يكون منها مناص.

وحدث نفسه بأن الشيء الحسن الوحيد، وذلك من وجهة نظر الروسيين، هو أن قيادة الجيش الروسي ليست في يد القيصر.

فسجلّه كقائد عسكري في السابق، كان من السوء بحيث أنه، حتى في هذا الوقت، ما زالت كل نكسة تصيب البلاد ترد إلى تقلده لذلك الأمر حينذاك.

ولشدة اليأس الذي كان قد أصيب شقيقته، كتبت إليه بفظاظة لم يكن ليستطيعها سواها، ومما قالته:

لا تحاول تولي القيادة بنفسك. ليس ثمة وقت تضيعه في التردد في تنصيب قائد للجيش يثق به الجنود. أما

أنت فلا يمكنك أن تكسب مثل تلك الثقة بأي شكل من الاشكال.

ومن الغرابة، أن يمتثل الكسندر لنصيحتها تلك وأن يترك الجيش.

كان قد رحل عائداً إلى موسكو، ثم إلى بيترسبورغ. فصار يسمع في كل مكان انتقادات لقيادة الجيش وفي كل مكان كانت هناك مطالبة بالقائد كوتوزوف والذي كان الشعب يحبه.

ولم يكن لدى القيصر الكسندر ثقة بالجنرال كوتوزوف، فقد كان يشعر وكأنه شخصية من قرن آخر، ولكنه قرر أن يذعن لمطلب الشعب، فقال لبليك عند وصوله: «الشعب يريده. ولقد عينته. أما بالنسبة إلي، فأنا أغسل يدي من هذه القضية كلها.»

وفهم بليك أن استياءه ذاك، ناتج عن عزله جانباً من قبل شعبه، وذلك لأجل قائد في السابعة والستين من عمره معروف بالكسل وبجهله التام بشؤون الحرب الحديثة.

لكن رجالاً آخرين في القصر أطلعوا بليك على أن كوتوزوف، رغم تقصيره، لديه حسن تقدير للأمور مستفيداً بذلك من سنوات خبرته الطويلة.

فقد قال له أحد رجال الدولة الطاعنين في السن: «إنه بطيء، ولكنه عنيد... كسول ولكنه فطن... بليد ولكنه ماكر مراوغ.»

كل هذه المعلومات كتبها بليك بالشيفرة وأرسلها مع رجل خاص إلى لندن، آملاً أن يتمكن رئيس الوزراء وسكرتير وزارة الخارجية، من الاستفادة منها.

قال لنفسه: هناك شيء غامض في أمر روسيا، وهو أن ثمة مفاجآت غير متوقعة تحدث فيها على الدوام، وهذا على الأقل يبعد الرتابة اليومية التي تبعث السأم.

كان يعلم بأنه يموّه عن نفسه بطريقته الساخرة، وإذ استرسل في هذا التفكير، سقط في النوم العميق.

* * *

عند الساعة التاسعة، أذن لبليك بالدخول إلى جناح القيصر الخاص.

وفي طريقه إلى هناك، كان قد مر، خلال ما بدا له أميالاً، بأجمل الغرف المزخرفة والتي لم ير مثلها في حياته.

كان على علم مسبق بكل هذه الفخامة، فالقصص التي كانت تحكي عن الكنوز والنفائس في بيترسبورغ وكذلك عن عظمة أبنيتها، كانت تعاد وتتكرّر على كل شفة ولسان في لندن.

فقد كانت الامبراطورة اليزبيت البالغة في الاسراف، هي التي هدمت قصر الشتاء الأساسي الذي كان بناه بيتر القيصر، ليشيّد هذا القصر المهندس راستريللي في ظرف ثماني سنوات على مساحة تبلغ مليوني قدم مربع، ألفاً وخمسين غرفة ومائة وسبعة عشر سلماً.

وعندما وصلت الامبراطورة كاترين إلى الحكم، أنشأت قصر الصيف الذي ضاهى قصر فرساي في باريس جمالاً وابداعاً، وفي بيترسبورغ أضافت إلى قصر الشتاء الهائل الحجم، ثلاثة أبنية أخرى.

وبين الأبنية، كان هناك ممرات جعلت فيها تدفئة في

فصل الشتاء، حتى انها جاءت بالطيور النادرة لترفرف في أجوائها بين الاشجار والنباتات الكثيفة.

وكانت الامبراطورة قد طلبت من سفرائها في باريس وروما ولندن بأن يهتموا جداً بالمعارض الفنية، وهكذا ابتاعوا لها الكثير من أعمال الفنانين الكبار أمثال رامبرندت وتيبولو وفان دايك وبوسان.

ولم يلق بليك سوى نظرة عدم اكتراث على هذه اللوحات الرائعة، فقد كان ذهنه مشغولاً بتقدم نابوليون في داخل روسيا.

ولكنه قال لنفسه، ان عدم تمكن الأجيال القادمة من رؤية مثل هذه الكنوز الفنية النفيسة سيكون مأساة حقيقية.

وعندما وصل إلى جناح القيصر حياه الحرس هناك.

ووجد بليك القيصر في انتظاره، وعندما وقع نظره عليه، أدرك على الفور لماذا الشعب الروسي كان قد نظر إلى الكسندر عند تسلمه السلطة، وكأنه ذلك الملك الذي تروى عنه الحكايات، والذي جاء لينشلهم من كل تعاساتهم.

ومع هذا، قال أحد الظرفاء ممن شهدوا حفلة تتويجه سنة ١٨٠١، وكان في الرابعة والعشرين من عمره: «لقد كان يتقدمه الرجل الذي قتل جده، وعلى جانبيه الرجال الذين كانوا قتلوا أباه، ويتبعه رجال لا يترددون في قتله.»

وكان بليك قد علم من أحد أصدقاء القيصر المقربين بأن الكسندر عندما علم بمقتل أبيه بتلك الطريقة القاسية، انفجر بالبكاء وهو يقول لزوجته: «ليس لدي قدرة على الحكم، دعوا شخصاً آخر يحكم مكاني.»

فكر بليك في أن القيصر لا تبرح عن مخيلته صورة أبيه مشنوقاً، بعد تعرضه للضرب الشديد.

كان بليك من الفطنة بحيث أدرك مبلغ عمق شعور الروسيين بالألم، بشكل ليس له شبيه بسواهم من الشعوب.

لقد كان يعرف القيصر شخصياً منذ عدة سنوات، وكان يعلم أنه غالباً ما يصاب بنوبات عقلية أخذت تزداد مع تقدمه في السن.

وكما توقع هذا الصباح، وجد القيصر قلقاً، يتكلم بلهجة متوترة وهو يقول لبليك بعد التحية: «الأخبار سيئة... سيئة جداً.»

فسأله بليك: «وما الذي علمته، يا سيدي؟»

«علمت بأن بونابرت ما يزال في طريقه إلى موسكو.»

قال ذلك وهو يتلفظ بتلك الكلمات بصعوبة بالغة، ثم تأوه متابعاً: «من يعلم إذا كان هذا صحيحاً، كما لا أحد يعلم، في الواقع، ما الذي يحدث.»

ولم يدهش بليك لكلامه هذا، لقد كان يعلم أن وسائل الاتصالات بين الجيش والقيصر عشوائية تنقصها الكفاءة كأشياء كثيرة أخرى في روسيا.

جلسا إلى مائدة الافطار حيث كان عليها، كالعادة، ثلاثة أنواع من الخبز. أحدها كان عبارة عن كرة بيضاء تدعى كلاتش خفيفة كالريش تؤكل ساخنة، وقد صنعت من ماء أحضر خصيصاً من نهر موسكفا.

وكان هذا الماء تزود به جميع القصور في بيترسبورغ، وهو تقليد يعود تاريخه إلى مئات السنين.

وأثناء تناولهما الطعام، بدلاً من أن يتحدث القيصر عما

www.rewity.com

كان يحدث للجند تحت قيادة الجنرال كوتوزوف، أخذ يتمتم بعبارات مبهمة.

وإذ نظر إليه بليك بدهشة، قال موضحاً: «أخبروني أمس أن صديق عمري الأمير الكسندر غوليتزن هو خائن.»

فهتف بليك الذي كان يعرف الأمير جيداً: «هذا مستحيل.»

فقال القيصر بصوت خافت: «حاولت أن لا أصدق ذلك، ولكن من أخبرني قال انه يبني قصراً فخماً ليستقبل فيه نابوليون.»

فقال بليك: «من المؤكد أنك لم تصدق مثل هذه الحكاية الكاذبة.»

فأجاب القيصر: «لقد ذهبت إليه على الفور وسألته عما يدعوه إلى البناء في مثل هذه الأوقات العصبية.»

فسأله بليك: «وماذا كان جوابه؟»

«لقد أجابني الأمير ليس لك أن تخاف أي غزو إذا تحليت بالتفاؤل.»

ووجد بليك صعوبة في كبح نفسه عن أن يقول إن الشعب الروسي بحاجة فعلاً للاعتماد على أنفسهم والتحلي بالتفاؤل.

وكان اطلع على تقرير كتبه الدكتور كلارك، وهو رجل انكليزي كان قد زار منذ سنتين مصنعاً للأسلحة في روسيا، فذعر لما شاهده من عدم الكفاءة هناك.

لقد قال في تقريره ذاك:

كانت الماكينات سيئة التركيب كما أن صيانتها كانت أسوأ. كل شيء كان معطلاً. وكان العمال بلحاهم الطويلة وهم يحدقون الواحد منهم بالآخر، متسائلين عما عليهم أن

يقوموا به، بينما كان المشرفون والمديرون ما بين نائم وجالس بملل، ومع هذا، يدعون بأن هذا المصنع ينتج ثلاثمائة بندقية اسبوعياً.

وكان بليك قد سأل في ذلك الحين: «وما هو الرقم الحقيقي للانتاج.»

فكان الجواب: «لا أدري. ولكننا علمنا بأن البنادق الروسية، إلى جانب كونها ثقيلة الوزن بشكل مزعج، فإن الرصاصات لا تنطلق منها بنسبة خمس رصاصات من عشر. هذا إلى احتمال انفجارها في يد صاحبها عند اطلاقها.»

وكان بليك قد فكر في أن الجواسيس الفرنسيين لا بد وأن زودوا نابليون بنفس تقرير الدكتور كلارك ذاك.

ولا شك أن نابوليون قد توقع أن المقاومة التي سيواجهها عند غزوه لروسيا، لن يكون لها تأثير يذكر على قواته التي كانت حسنة التنظيم ومسلحة بأحدث الأسلحة والمعدات الحربية.

ولكن كلاماً كهذا إذا قيل للقيصر، سيكون قاسياً عديم الجدوى، ولذلك حاول بليك جهده أن يتحدث عن أمور أخرى، مدركاً عدم الفائدة من القاء هذا الرجل لتلك البلاد الواسعة، في وهدة اليأس.

وأخذ يفكر متفائلاً في أنه ربما تحولت الأمور إلى الأفضل. ولكن، عندما أخذ ينتقل بين أعضاء الاسرة المالكة وغيرهم، في قصر الشتاء، وجدهم يماثلونه توجساً وخوفاً.

لقد رأى في الواقع، الجو مثقلاً بالكآبة، ما جعله يعتزم

زيارة الاميرة سيفولسوف والتي كان يعرفها منذ سنوات عديدة.

كان، عند وصوله إلى القصر، قد وجد رسالة باسمه بخط يدها، تطلب منه بأن يغتنم أول فرصة سانحة لمقابلتها.

لقد كتبت إليه تقول:

«إن زوجي المسكين هو طبعاً في ساحة المعركة، ولكنني سأستقبلك على الرحب والسعة بصفتك واحداً من أعز الأصدقاء القدامى لي في انكلترا. كذلك أريدك أن تتعرف إلى صغيرتي تانيا. لقد كانت في العاشرة فقط أو الحادية عشرة عندما رأيتها آخر مرة. والآن قد أصبحت رائعة الجمال، وعندما تنتهي هذه الحرب المتعبة، أريد أن أقيم لها حفلة في لندن لاقدمها إلى أصدقائنا وأجعلها تقابل الملكة في قصر باكينغهام.»

كان بليك قد قرأ هذه الرسالة ووجد كثيراً من المعلومات مكتوبة بين السطور. كان يعلم أن الأمير سيفولسوف هو من أغنى الرجال في روسيا. فقد كانت عائلته، كغيرها من العائلات النبيلة التي يرجع نسبها إلى أجيال مضت، لا تملك فقط الأراضي الواسعة، بل كذلك عدداً خيالياً من الرجال يعملون فيها.

تذكر بليك أن للأمير سيفولسوف أكثر من خمسة وعشرين ألف رجل في مختلف انحاء البلاد.

ولم يكن يستخدمهم فقط في مجال صياغة الذهب والنجارة ونحت خشب الابنوس، ولكن في مسرحه الخاص به الذي كان يقدم فيه عروضاً أمام أصدقائه.

وكانت زوجته بنفس أهمية بقية ممتلكاته. لقد كان

يجري في عروقها الدم النمساوي والدم الانكليزي، وغالباً ما كانت تقول لبليك بأنها ترجو أن لا يتزوج أولادها، حين يكبرون، من روسيين.

لقد أدرك بليك تماماً الآن، وهو يعود إلى كل هذا بذاكرته القوية، السبب من وراء حديثها عن ابنتها تانيا.

وفي الواقع، كان يمكن لزواج كهذا بين ابنة أحد أغنى وأهم نبلاء روسيا، وبين أغنى وأهم نبيل انكليزي، أن يكون مناسباً تماماً.

ولكن بليك حدث نفسه بأن الاميرة سيخيب أملها... فهو في الثالثة والثلاثين من العمر، وقد نجح حتى الآن في تجنب الزواج. ومع أنه لعدة مرات كان على وشك الوقوع في فخ الزواج، إلا أنه كان ينجح، في آخر لحظة، في أن ينتزع نفسه من هذا الموقف الصعب، وفي السنوات الاخيرة، كان قد اطمأن إلى أن الزواج لن يحدث، وذلك بابتعاده عن النساء.

«سيكون عليك أن تتزوج يوماً ما لكي تنجب وريثاً.»

كان هذا القول يسمعه دائماً ويعاد تكراره إلى أن حدث نفسه بأن لا مانع لديه من أن يؤول مركزه الهام إلى أخيه الأصغر وأسرته دون أن يشعر لها بأي ندم.

ولطالما ردد بليك بينه وبين نفسه، ولآلاف المرات، بأنه لن يتزوج أبداً.

وها هو الآن يفكر متهمكاً في أن كاتارينا ستكون عرضة دون شك، لأن يسألها القيصر أو وزير الخارجية عما استطاعت استخلاصه منه من أسرار، حتى الآن.

ومع أنه كان واثقاً من أنه سيكون بإمكانها، لما تملكه من

ذكاء، بأنها ستجد لهما شيئاً تلهيمها به، بينما هو، في الواقع، لم يقل لها شيئاً يمكن نشره في أي صحيفة روسية.

لقد كان شاهد كاتارينا هذا النهار عن بعد، وذلك أثناء تناول الغداء، تتحلى بمجوهرات ثمينة كان واثقاً من أنها هدية من زوجها العجوز الغائب.

قرّر أن يقوم باستكشاف معالم المدينة وأن يحاول التعرف، وربما من خارج القصر، إلى ما يفكر فيه الشعب في هذه الاثناء.

ولهذا نزل على السلم ذي الاعمدة البيضاء والذهبية متجهاً إلى الباب الخارجي حيث استقل إحدى العربات المكشوفة والتي كانت دوماً تحت تصرف ضيوف القصر، آمراً الحوذي بأن يتجه به إلى قصر سيفولسوف.

وكانت الشوارع البالغة الاتساع، والتي كان أنشأها بيتر القيصر، غير مزدحمة بوجه عام في ذلك الوقت من النهار حيث كان أكثر الناس يفضلون البقاء في المنزل، خصوصاً بعد تلك الأخبار المشؤومة عن تقدم نابوليون.

كان بليك، أثناء سير العربة، يمتع ناظريه برؤية القصور الفخمة والأبنية الأخرى التي كانت تختلف بألوانها المشرقة عن ألوان أبنية انكلترا الرمادية اللون.

كان قصر رومينزوف مدهوناً باللون البرتقالي، ووزارة العدل باللون الأزرق، كما أن الثكنات العسكرية الهائلة الحجم والتي كان بناها القيصر بول، صفراء اللون.

وكان أكثر ما أثار اهتمام بليك أماكن ترويض الخيل. لقد كانت مدهونة باللون الأخضر كما كان على جانبي الرواق ثمانية أعمدة بيضاء ورصاصية اللون.

وصلت العربة التي كان يجرها جوادان، إلى قصر سيفولسوف بظرف خمس دقائق. فدخل بليك إلى الردهة، ثم أجال النظر في أنحاء المكان الذي، وإن لم يكن في مثل روعة قصر الشتاء، إلا أنه كان يفوق بكل تأكيد أي منزل آخر رآه حتى الآن.

وقاده خادم صعد معه سلماً رخامياً الى غرفة الاستقبال كانت ذات مساحة تتسع لمئتي شخص أو أكثر بكل راحة وسهولة.

توقع بليك أن يطلب منه الانتظار، ولكن الخادم قال له بفرنسية متعثرة: «إن سيدتي الأميرة في قاعة المسرح، يا سيدي.»

فأومأ بليك برأسه ثم تابعا سيرهما خلال عدد من الغرف ذات زخرفة بديعة إلى أن وصلا إلى سلم هبطا منه إلى الطابق الأرضي.

كان بليك قد سمع في انكلترا بأن مسرح الأمير سيفولسوف الخاص غير عادي، ولكنه لم يكن قد تصور كل تلك الجمال الذي وقعت عيناه عليه عندما فتح الخادم باباً مزخرفاً بالذهب، فدخل منه إلى ما كان واضحاً أنه مقصورة ملكية.

كانت القاعة صغيرة للغاية لا تكاد تتسع لمائة شخص. فهي أشبه بغرفة للدمى في قصر ملكي، ومع هذا فقد حفلت بكل الجمال الذي يتميّز به أي مسرح ملكي.

كانت المقاعد الأمامية بيضاء مذهبة، بينما بقية مقاعد القاعة منجدة بالقطيفة القرمزية وكذلك مقاعد المقصورة التي دخلها لتوه.

لم يعلن الخادم عن اسمه، فوقف في الخلف وقد رأى أمامه الأميرة التي لم تشعر بوصوله لاستغراقها في مراقبة ما كان يجري على خشبة المسرح حيث كانت فتاة تعزف على البيانو مع الفرقة الموسيقية.

ألقى بليك نظرة عدم اكتراث على الفتاة التي تعزف، معتبراً أنها، حيث أن المسرح هو ملك للأمير، لا بد أن تكون إما عضواً في فرقته الموسيقية الخاصة، وإما احدى أفراد عائلته، وهذا هو الأقرب احتمالاً.

وعاد به الفكر إلى ما كان قال له البعض، وربما الأميرة نفسها، من أن الأمير شغوف بالقيام بنفسه بالتمثيل، كما يحب أن يشاركه أفراد أسرته بذلك.

إذا كان ثمة شيء يكرهه بليك حقاً، فهو اداء الهواة، وتمنى لو أن ما يراه على المسرح الآن لن يستمر طويلاً، فقد كان يريد التحدث إلى الأميرة.

وأخيراً، انتهى العزف الموسيقي، فتنهد بليك بارتياح في نفسه لذلك.

وكان على وشك التقدم إلى الأمام كي تراه الأميرة، عندما ركضت الفتاة خارج خشبة المسرح.

لكن الموسيقى عادت تعزف الحاناً أخرى حين ظهرت فتاة ثانية.

ورغم ما كان يشعر به من ضيق، فقد وجد هذه الموسيقى حافلة بالنغم الجميل.

وكان بليك شغوفاً بالموسيقى مثل الأمير، كما هي الحال في كل أمر يهمه.

وهو يدرك الآن أنه يستمع إلى موسيقى غير عادية في

روعتها والتي لم يسمع بمثلها من قبل، خصوصاً مثل الموسيقى الروسية.

وحدث نفسه بأن روسيا مليئة بكل ما يدهش، وشعر بالموسيقى تلك تثير في نفسه استجابة لم يشعر بها منذ وقت طويل.

عندما كان فتياً، كانت الموسيقى، وكذلك الشعر، يحدثان في نفسه تأثيراً عميقاً، إلى أن اعتاد عليها، ككل شيء آخر في حياته. فلم تعد تؤثر به كما كانت في مطلع شبابه وذلك رغم اعجابه بأنغامها.

وتجده الآن يستمع الى هذه الموسيقى بعمق، دون أن يعرف السبب من ذلك.

وعندما انتهى العزف الموسيقي شعر وكأنه خسر شيئاً جميلاً.

وأسدل الستار الأحمر، ثم ارتفع مجدداً لتظهر الفتاتان حيث تقدمتا الى الامام ويد الواحدة بيد الأخرى لالقاء التحية.

ولكن لم يكن هناك من يصفّق سوى الأميرة، ولكنها قامت بذلك بحماس شديد وهي تصرخ: «رائع، ممتاز.»

بعد ذلك، انتبهت الأميرة إلى وجود بليك الذي كان واقفاً خلفها في المقصورة.

أطلقت صيحة سرور، ثم وقفت وهي تمد يدها مصافحة وهي تهتف: «بليك. هل جئت؟ لشد ما أنا مسرورة لرؤيتك.»

فأجاب: «بقدر سروري لرؤيتك، يا سونيا، من تكون تلك الفتاة الأولى التي عزفت على آلة البيانو؟»

فأجابت الأميرة: «انها تانيا، صغيرتي تانيا التي أريدك

أن تتعرف إليها من كل قلبي. ستراها بعد لحظات قليلة، وأنا أعلم أنك، عند ذاك، ستصدق كل ما أخبرتك به عنها وأكثر من ذلك.»

ثم خرجت مع بليك خارج المقصورة، وعندما أخذا يصعدان السلم، سألها بليك: «ومن تكون تلك الفتاة الأخرى التي شاهدتها مع تانيا؟»

فساد صمت ملحوظ قبل أن تجيب الأميرة: «إنها، إنها زويا.»

الفصل الثاني

أوشك بليك على ان يسألها عن الاسم العائلي لزويا، ولكن الأميرة تابعت ثرثرتها قائلة: «لا بد انك تجد الجو شديد الحرارة، كما نجده، طبعاً، فنحن عادة لا نبقى في بيترسبورغ في مثل هذا الوقت من السنة بل في الريف، ولكن بما أن القيصر في قصر الشتاء حالياً، لا نريد أن يشعر بأننا هجرناه.»

كانا يسيران الآن في الجناح الرائع الجمال الذي كان بليك قد رآه عند قدومه وهو في الطريق إلى المسرح، وما أن فتح الخادم لهما باب الصالون الأبيض حتى أدرك بليك أنه اسم على مسمى، ذلك لأنه كان أبيض اللون بجميع محتوياته.

كان رف المدفأة المزخرف، قطعة فنية بديعة وكذلك كانت الستائر المصنوعة من الحرير الصيني السميك.

وكانت امام إحدى الأرائك منضدة عليها صينية فضية يعلوها إبريق شاي فضي متألق. ضحكت الأميرة وهي ترى ما ارتسم على ملامح بليك وقالت: «انه شاي الساعة الخامسة كما هي العادة في انكلترا، لقد تأقلمت مع هذه العادة عندما كنت هناك، والآن تجد عدد كبير من الناس في بيترسبورغ اصبحوا يقلدونني في ذلك، ليس في امكاني ان اقدم اليك الفطائر الانكليزية، ولكن قد تعجبك بعض الفطائر التي تراها هنا.»

www.rewity.com

وإذ كان بليك يعلم أن هذه الفطائر مصنوعة من القمح ومحشوة بالكفيار والقشدة الحامضة، فمن المؤكد انها ستعجبه.

وجلس على كرسي مريح، ينتظر فنجان الشاي الذي كانت الأميرة تسكبه بنفس الطريقة التي كانت والدته في الوطن تقوم بها.

سألته: «إلى متى ستبقى هنا؟ أو هذا أمر لم تقرره بعد؟»

فأجاب: «اشعر بأن اخبار الجبهة الحربية هي من ستقرر لي ذلك.»

فهزت الأميرة كتفيها وقالت: «بما أن الجنرال كوتوزوف هو من يستلم زمام الأمور الآن، فكل شيء سيكون على ما يرام وسينتصر جيشنا.»

وفكر بليك في انها متفائلة نوعاً ما، وهذا على أي حال، افضل من الجزع والقنوط الذي يحيط بقصر الشتاء. لهذا اجابها: «أرجو ان تكوني على صواب، فيا ليتك ذهبت الى القيصر وتحدثت معه.»

أجابت: «هذا لن يفيد في شيء. فأنت تعلم، يا بليك، كما أعلم أنا، بأنه اذا هناك شيء يستمتع به الروسيون، يكون الاسترسال في الجزع والكآبة أثناء المحن. وهكذا هي الحال مع زوجي، ولكنني وأنا بجانبه، لا يمكنني أن افعل شيئاً، سوى انتظار شروق الشمس من جديد.»

فضحك بليك وقال: «فلسفة سهلة من فيلسوفة مثلك.»

ولم يكن هنالك من شك في أنه عندما يمتدح الأميرة، بأنه يقول الحقيقة.

فقد كانت، عندما تزوجها الأمير، من أروع جميلات القصر الامبراطوري في فيينا، ولم يقلّل تقدمها في السن من ذاك الجمال.

ولكن قوة الشخصية التي تتمتع بها، جعلت بليك يشتبه في انها هي من يستلم زمام الأمور في منزلها وهذا أمر غير معتاد عليه بالنسبة إلى المرأة في روسيا.

فالروسيون غالباً ما يفضلون نساءهم قليلات الفضول، ولكن الامبراطورتين الشهيرتين، اليزابيت وكاترين، كانتا قد وضعتا قاعدة اتبعتها الكثيرات من الزوجات الروسيات، فكان ان اصبحن متسلطات بشكل لا يحتمل.

ولكن الأميرة، على كل حال، لم تكن روسية، وكان بليك يعلم أنه يسرها ان تذم الدولة لمجرد التحدي فقط، وذلك نظراً لأهمية زوجها ومكانته.

كان زوجها الأمير حسن الطباع سهل الانقياد، يحب السلام في منزله كما في وطنه، وكان بليك واثقاً من أنه اذا كان يؤدي دوره كجندي في الوقت الحالي، فما ذلك إلا رغماً عنه.

كانت الأميرة تتحدث عن لندن، وتوجه إليه اسئلة عن اصدقائها عندما فتح الباب ودخلت الفتاتان اللتان كان بليك رآهما.

لم يكن ثمة شك في أن تانيا، كانت بالجمال الذي وصفتها به أمها.

وعندما انحنت لبليك تحييه، تأكد من انها إذا ذهبت إلى لندن فستلاقي نجاحاً طيباً في المجتمع هناك.

عند ذلك سمع الأميرة تقول: «وهذه زويا. لقد جاءت معنا من موسكو، لتتمكن تانيا معها من تحسين لغتها الفرنسية.»

ولأول مرة منذ دخولها الغرفة، نظر بليك إلى هذه الفتاة التي كان لها في نفسه تأثيراً غامضاً. لكنه استدرك وقال في نفسه هذه ليست سوى تخيلات نتيجة لحرارة الجو هذا النهار.

انحنت زويا امامه باحترام، وعندما اعتدلت رفعت وجهها تنظر إليه فوجد نفسه ينظر في عينين عميقتين غير عاديتين.

وعندما تمعّن في وجهها، أدرك أنها تختلف عن أي امرأة أخرى رآها في حياته.

لم يكن السبب جمالها الرائع، أو ذلك الجمال الذي يدير الرؤوس، حتى اننا لو تناولنا الحقيقة، نجد انها ليست بجمال تانيا.

وخيّل إليه أنه يسمع صوت الأميرة آتياً من مكان بعيد وهي تقول: «اجلسا وتناولا الشاي، فأنا أريد ان اتحدث إلى السيد بليك، فهو صديق قديم جداً، ونحن نفضل ان نكون بمفردنا.»

كانت تتكلم وهي تسكب الشاي في الفنجان، وعندما رفعت بصرها ورأت ما كان على بليك وزويا من تحديق ببعضهما البعض، أضافت بصوت فيه بعض الحدة: «أنا واثقة يا زويا، من أن وقت تدريباتك الموسيقية قد حان، إذهبي إلى غرفة الموسيقى واخبري الخدم ان يوافوك بالشاي إلى هناك. فهذا يوفر عليك الوقت.»

وإذ قالت الأميرة ذلك، أجفلت زويا وكأنها كانت غائبة عن المكان. ثم انحنت احتراماً للأميرة ومن ثم غادرت الغرفة، دون ان تتكلم. ما أن انغلق الباب خلفها، حتى شعر بليك فجأة، بأن يناديها طالباً منها البقاء، ولكن عندما تأكد له ذهابها، غمره شعور بالخسارة.

قالت الأميرة: «هيا اجلس يا بليك، وحدث صغيرتي تانيا عن لندن، انها لم تذهب إلى هناك منذ أن كانت في العاشرة من عمرها، ولكن ما زال لديها أجمل الذكريات عن حدائقكم العامة وشوارعكم الضيقة والمضحكة.»

وأدرك بليك ان وصف الأميرة لشوارع لندن يعود إلى ان شوارع بيترسبورغ بالغة الاتساع وغير مزدحمة.

وإذ رأى تانيا تنظر إليه مستطلعة، سألها: «هل انت متشوقة حقاً إلى زيارة لندن؟ أؤكد لك انها ليست بنصف جمال بيترسبورغ.»

«أمي تقول، إن الحفلات هناك أجمل بكثير من الحفلات هنا.»

فأجاب بليك: «لا اصدق ذلك، فهنا تقابلين الكثير من الضباط الشبان الذين من المؤكد يتحلقون حولك.»

فأجابت: «هذا لم يعد يحصل حاليًا، انهم جميعاً في الجبهة يحاربون الفرنسيين.»

تكلمت وهي تزمّ شفتيها استياء.

فقالت الأميرة متأوهة: «الحرب، الحرب، الحرب. ألا تسمع أبداً شيئاً غير هذا؟ كنت رتّبت أمر إقامة حفلات مسلية لأجل تانيا في قصر الصيف، لكننا اجبرنا على البقاء هنا في هذا الجو الحار.»

فقال بليك بصوت تشوبه نبرة ساخرة: «انني آسف لأجلك.»

كان يعرف الأميرة جيداً، فهي وبسبب مصالحها الشخصية تتجاهل الضحايا البالغة العدد التي سقطت في معركة سمولنسك.

فقالت الأميرة وقد غيرت لهجتها بسرعة: «دعنا نتحدث في موضوع اكثر أهمية مادمت هنا الآن، سأقيم لك حفلة... حفلة عشاء على أنغام فرقة غجرية كنت قد اكتشفتها بنفسي وموسيقاها ممتعة للغاية.»

ابتسمت ثم عادت تقول: «انني احتفظ بسرّ هذه الفرقة لئلا تعزف في حفلة أخرى قبل حفلتي، ولكنك ستكون العذر لأن أقدمها إلى بيترسبورغ والتي ستندهش كثيراً لعزفها.»

فسألها بليك: «وهل سيرضى القيصر بذلك؟ إنه شديد الإكتئاب والقلق من هذه الحرب.»

فقالت الأميرة: «اننا لن ندعوه، وسنخبر كل انسان أنها مجرد حفلة عشاء صغيرة أقيمها لأجلك، ولكن اصدقائي سيحضرون، وسنكرمك ونحتفي بك تانيا وأنا، أليس كذلك يا عزيزتي الغالية؟»

قالت ذلك لتانيا التي ظهر الحماس في عينيها وهي تقول: «حفلة عشاء ترافقها الموسيقى الغجرية، يا أمي! ما أروع هذا، اليوم فقط كنت أقول لزويا ان الوقت الذي نمضيه روتينيّ لا حياة فيه.»

فقال بليك يذكرها: «ولكن لديك الدروس الموسيقية لتملأ وقتك.»

فهزت كتفيها وقالت: «انني أتلقى هذه الدروس منذ سنوات وذلك لكي أسعد أبي، ولكن زويا تعزف أحسن مني بكثير.»

فقالت الأميرة ببرود: «ان زويا من طبقة مختلفة عن طبقتنا تماماً، انصرفي الآن يا حبيبتي وساجعلك تعودين لتوديع بليك قبل ذهابه.»

فقالت الفتاة وهي تنظر إلى بليك: «يسرني هذا.» ثم أسرعت بالخروج من الغرفة وأمها تنظر إليها، بعدها سألت بليك: «ما رأيك فيها، يا بليك؟»

فأجاب: «انها جميلة جداً مثل أمها، وسيكون نجاحها ساحقاً في مجتمعات لندن.»

فقالت بنعومة: «انني أريدها أن تكون ناجحة معك أنت بالذات.»

فسألها بلهجة من لم يخطر بباله مثل هذا الأمر: «معي أنا؟ انك تعلمين أنني اعزب مستديم هذا إلى انني كبير في السن بالنسبة إليها.»

فقالت الأميرة بجد: «اظن تانيا ستكون اكثر سعادة مع رجل يكبرها سناً، فهي بحاجة إلى توجيه، ويد حازمة.»

فسألها: «ألم تسألي نفسك ما الذي يجمعني بفتاة خرجت لتوها من المدرسة؟ كلا يا عزيزتي سونيا، ان اهتماماتي تنصب في مجالات اكثر تعقيداً.»

لقد تعمد قول هذا بطريقة تتضمن المديح، ورأى، تغيراً مفاجئاً في عيني الأميرة وهي تقول: «انك تعلم كما اعلم، يا بليك، بأنك تمثل وسامة وشهامة الرجل الانكليزي.»

فقال: «اعدك بأن اقدّم تانيا عندما تحضرينها إلى لندن، إلى افراد المجتمع اللائقين بها، وفي الواقع، اظن ان أخي الأصغر سناً ربما يناسبها تماماً.»

عند ذلك شعر بالأميرة تقدر الأمر في ذهنها فإذا بقي اعزب كما قال، فإن أخاه سيرث لقب عائلة ويلمنستر من بعده، مفتصبح تانيا في المركز الذي تريده لها.

«انني واثقة من أن بإمكاني الاعتماد على شهامتك.»

«اخبريني عن صديقة تانيا، فهي أيضاً جميلة، هل ستحضرينها معك إلى لندن كذلك؟»

وتعمد ان يقول ذلك من دون أي اهتمام، فأجابت الأميرة: «مسكينة زويا، لشدّ ما اشعر بالأسف لأجلها، انما الذنب ليس ذنبها ان جاءت الأمور بهذا الشكل.»

فسألها متعمداً نفس الطريقة في عدم الاهتمام: «ما الذي تعنيه بذلك؟»

فأجابت: «لقد نسيت أن اخبرك من تكون.»

«ومن تكون؟»

«انها ابنة بيار فالون.»

ومضت لحظة لم يستطع فيها بليك ان يتذكر متى سمع بهذا الاسم، وإذا به يهتف: «اتعنين المايسترو؟ ذلك الموسيقار المشهور؟»

فأجابت: «طبعاً، هنالك فالون واحد في عالم الموسيقى.»

قال بليك: «لقد سمعته السنة الماضية في لندن يقود فرقته، ومنذ وقت طويل ايضاً في باريس عندما كنت غلاماً، اعتقد انه أفضل قائد للفرقة الموسيقية في العالم دون

منازع، وكنت على الدوام أرى ان موسيقاه متفوقة للغاية.»

لقد أدرك الآن، وهو يقول ذلك، لماذا جذبته تلك الموسيقى وأثارت في نفسه كل تلك المشاعر.

وأضاف يقول: «لم تكن لدي فكرة بأن لفالون أسرة.»

فقالت الأميرة: «ولكنك تعرف قصته بالطبع.»

أجاب بليك: «كلا، في الواقع، لقد اعجبت دوماً بفنه، فلم افكر فيه يوماً كإنسان.»

فقالت: «إذن، فساحدثك عنه.»

كان بليك يعلم ان من دواعي سرورها، وهي التي يسعدها الخوض في سيرة الناس الشخصية، ان تكشف له عن شيء لم يسبق له معرفته.

قالت: «ان زوجة بيار فالون كانت ناتاشا ستروفولسكي.»

فأجفل بليك وهذا ما كانت تريده، ثم هتف يقول: «ستروفولسكي؟»

كان يعلم تماماً ان أسرة ستروفولسكي، وهي إحدى أهم العائلات في روسيا، كانت تتباهى إلى أقصى حد بصلتها بالأسرة المالكة.

حيثما ذهب القيصر، هناك دوماً فرد من تلك الأسرة للاهتمام به ورعايته، ليس فقط بصفتهم من رجال القصر، وإنما لأن الدم الملكي يجري في عروقهم.

كان آل ستروفولسكي من الكبرياء والزهو بصلتهم بالأسرة المالكة إلى حد أن البعض كان يقول ضاحكاً: «سيصحو القيصر ذات صباح ليجد رجلاً من آل ستروفولسكي جالساً مكانه.»

www.rewity.com

كان بليك يعلم، حتى دون أن تقول الأميرة ذلك، أن فكرة زواج فتاة من أسرة ستروفولسكي بموسيقار فرنسي، مهما بلغت شهرته، هي فكرة لا يمكن ان تخطر في بال أحد.

سألها: «وكيف امكن هذا؟»

وكان يعلم أن الأميرة لم تكن تنتظر سوى هذا السؤال لكي تبدأ قصتها، فقالت: «لا بد وأنك تتذكر، ان غريغوري أورلوف هو الذي اوصل كاترين الثانية إلى السلطة.»

«نعم، بالطبع.»

لقد اصبح أورلوف، فيما بعد يعتبر جزء من تاريخ روسيا.

لقد كان وسيماً وفي غاية الطموح، وفي سنة ١٧٦٢، علمت أوروبا وقد استولى عليها الذهول بأن، ونتيجة لمؤامراته، تمكنت أميرة المانية لا أهمية لها بالاستيلاء، على سلطة روسيا أولاً من القيصر بيتر الثالث وبعد ذلك من ابنه بول. وكان بليك قد سمع وصفاً لها هو انها ليست فقط قاتلة، بل هي أيضاً مغتصبة للسلطة، وليست فقط مغتصبة، بل هي أيضاً فاسدة الأخلاق.

ولطالما حدثه والده، والذي كان قد زار روسيا في ذلك الحين، كيف كان الخوف والقلق يمتلك الإمبراطورة إزاء صديقها أورلوف، بينما هي في غاية القوة والسيطرة إزاء كل شخص آخر.

لقد كان والد بليك يقول: «اعتقد ان ذلك الرجل كان يضربها حين يكونان بمفردهما، ولكنها كانت تحبه إلى درجة غير عادية، انني لم أر أحد يغدق بالهدايا كما كانت تغدق هي عليه.»

ان بليك يتذكر الآن كيف وصف والده يوماً بذلة كان اورلوف يرتديها وقد رصّعت بما قيمته مليون جنيه من الجواهر، كما حدثه عن مهرجان كان أقيم في الهواء الطلق حيث قدم العشاء، وكيف بعدها قدمت الحلوى في صحون رصّعت بجواهر بلغت قيمتها اكثر من مليوني جنيه استرليني.

وكانت الأميرة تتابع قائلة: «وبعد عشر سنوات من تتويجها، قررت الإمبراطورة كاترين ان تستبدل غريغوري أورلوف.»

فابتسم بليك قائلاً: «لأنه أُعجب بالأميرة غوليتسينا.»

فقالت: «بالضبط، ولكن الذي لم تكن الإمبراطورة تعرفه، ولا أحد في ذلك الوقت، أنه كان أيضاً معجب بالأميرة الشابة بيتيا ستروفولسكي.»

فهتف بليك: «هذا شيء لا يصدق.»

فقالت: «صدق أو لا تصدق، تصور حالة الذعر التي اصابت عائلتها عندما علمت بأن اجمل وأحب ابنة لديهم تقابل ذلك الأمير البالغ في الدهاء، والقوة طبعاً.»

فسألها: «وما الذي فعلوه؟»

فأجابت: «لقد أرسلوا بيتيا إلى النمسا للإقامة مع بعض الأصدقاء، حيث تزوجت من أحد أقارب عائلتها وانجبت طفلة سمتها ناتاشا.»

وكان بليك يستمع باهتمام بينما كانت الأميرة تتابع: «بعد ذلك بعامين، عادت بيتيا والطفلة إلى روسيا بعدما توفي زوجها في فيينا.»

فسألها: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

www.rewity.com

فأجابت: «لقد نشأت ناتاشا في الأسرة. أما بيتيا أمها، فقد تزوجت أحد أبناء عم زوجي وماتت أثناء الولادة.»

«اظن ان الامبراطورة أعادت أورلوف إلى مركزه، أليس كذلك؟»

«لقد كانت دوماً تقول: لا استطيع ان أبقى يوماً واحداً من دونه، لقد افتقدته إلى أقصى حد. وبعد عودته أثقلته بالهدايا، ستة آلاف رجل تحت خدمته، وراتب يبلغ مائة وخمسين ألف روبل، لا ادري ماذا غير ذلك.»

فسألها: «هل أكون مخطئاً في اعتقادي بأنه قدّم لها هدية بالغة الأهمية؟»

أجابت الأميرة: «كانت هديته ماسة سوليتير رائعة كلفته أربعمائة وستين ألف روبل، انها أروع جوهرة وفريدة من نوعها في العالم.»

وعندما حسب بليك في ذهنه كم يبلغ هذا المبلغ بالجنيهات الاسترلينية، أيقن ان هدية اورلوف لكاترين كانت حقاً تعبيراً صادقاً عن اعتذاره.

فقال لها: «تابعي قصتك.»

قالت: «يمكنك ان تتصور مقدار الذعر الذي اصاب أسرة ستروفولسكي عندما وجدوا أن ناتاشا ابنة بيتيا تهرب مع معلم أولادهم وتتزوج منه.»

«إذن، فهكذا كانت صفة بيار فالون في ذلك الحين؟»

«لقد جاء إلى روسيا، ككثيرين من الفرنسيين، ليعلم أولاد الأسر النبيلة اللغة الفرنسية والموسيقى، لقد كنت رأيته انت وبالتالي يمكنك ان تفهم ان أي شخص يوظف

عنده رجلاً بمثل تلك الوسامة، فإنما يجلب المتاعب إلى نفسه.»

فأومأ بليك برأسه موافقاً. لقد كان قد رأى مبلغ وسامة بيار فالون حين كان هذا يقود فرقته الموسيقية في الحفلة الفخمة التي كان أقامها أمير ويلز في قصر كارلتون.»

سألها: «كيف كان شكل الأميرة ناتاشا؟»

أجابت الأميرة: «كانت جميلة للغاية.»

فسألها: «تقولين كانت؟»

أجابت: «نعم، لأنها ماتت منذ سنة، هذا هو سبب ما أشعر به من أسف لأجل زويا، ما جعلني احضرها معي من موسكو بينما والدها يقود الفرقة الموسيقية في المسرح الكبير، وذلك لكي امنحها فرصة تنسى فيها أسوأ مأساة تصيب فتاة شابة في ظروف كهذه.»

فسألها: «لماذا تقولين ذلك؟»

نظرت إليه بعطف وكأنه بهذا السؤال يظهر غباءه، ثم أجابت: «عندما كانت الأميرة حية، كان يمكن ان تسنح للفتاة فرصة تقابل بها رجلاً مناسباً، رجلاً قد يقتنع بها إلى حد يتجاهل فيه النتائج الاجتماعية لزواجه منها... أما الآن...»

وبسطت يديها بحركة معبرة، ثم تابعت تقول: «اما الآن فلم تعد زويا سوى ابنة موسيقار فرنسي فقط.»

فقال بليك: «ولكنه موسيقار بالغ الشهرة، وملحن ترقى اعماله إلى مصاف اعمال اشهر الموسيقيين.»

فقالت الأميرة ببرود: «مهما كانت موهبته، ومهما كانت شخصيته هامة، فأنت تعلم كما اعلم انا، يا عزيزي بليك،

بأنه، اجتماعياً، لا يعدو سوى معلماً فرنسياً ناجحاً في مهنته فقط.»

تنهدت وهي تتابع: لشد ما اشعر بالأسف لأجل زويا، وأنا واثقة من انها، وبعد وفاة أمها، لا تريد أسرة ستروفولسكي التعرف إليها... لقد سبق واخبروني ذلك بأنفسهم. كما لا اعتقد انها ستجد في باريس أي سعادة حالياً ونابوليون يستدعي للتجنيد كل شاب في سن الزواج.»

فقال بليك: «يمكنني تفهم وضعها جيداً.»

فقالت: «انك تدرك الآن مقدار حبي للخير إذ أحضرتها إلى منزلي، ان تانيا مولعة بها جداً، وعلى الأقل تتسلى الفتاتان معاً في هذا الوقت الذي تقل فيه وسائل الترفيه.»

وكأنها سئمت من سيرة زويا، فقالت: «والآن، فلنضع الخطة يابليك، في أي مساء يمكنك الخروج من القصر؟ ولكن امنحني بعض الوقت لكي اتمكن من الاحتفال بالمناسبة بشكل لائق تماماً.»

فقال: «يساورني شعور بأن صفحتنا لدى القيصر ستكون سوداء.»

وقبل ان تتمكن من اجابته، دخل خادم الغرفة وقال للأميرة شيئاً بصوت خافت. فهتفت: «يا له من شيء مزعج، لقد أتى شخص من عند زوجي لم يحضر لي اخباراً من الجبهة فقط، وانما ليطلب عدداً من الأوراق لا يستطيع أحد غيري العثور عليها.»

فوقف بليك وقال: «إذن يجب ان اتركك الآن، إذا كتبت إلى الأمير فحدثيه عن مقدار خيبة أملي في عدم تمكني من الاجتماع به.»

أجابت: «انه هو أيضاً سيصاب بخيبة أمل، فقد كان دوماً مهتماً بك كما تعلم.»

وأشارت إلى الخادم لكي يخرج، ثم قالت لبليك: «تعال لرؤيتي غداً لنرتب الأمور، لدي الكثير لأخبرك به وما من مجال الآن.»

قالت ذلك بطريقة جعلت بليك ينظر إليها مستطلعاً، عند ذلك التفتت في الاتجاهين لكي تتأكد من أن أحداً لا يسمعها، ثم قالت بصوت منخفض: «احذر من كاتارينا باغريشين.»

فسألها: «احذر منها؟»

«انها على علاقة وطيدة بالقيصر. ومن المعروف عنها جيداً بأنها تساعد وزارة الخارجية في تحرياتها.»

ولكن بليك كان من الأدب بحيث لم يقل لها انه على علم بذلك، فقال: «اشكرك، يا عزيزتي سونيا، فأنت دوماً تلك الصديقة الوفيّة، وأنا أقدّم لك شكري البالغ.»

وعندما غادر بليك الغرفة، وجد في الخارج الرجل القادم من قبل الأمير، وبدا عليه التعب في بذته التي يعلوها الغبار، وعندما أدخل الخادم الرجل إلى الصالون الأبيض سار بليك في الممر باتجاه السلم.

وصل إليه وكان على وشك النزول عندما سمع صوت الموسيقى قادماً من غرفة في الناحية الأخرى من السلم.

تردد لحظة، ثم سار إلى الباب وفتحه، كانت الغرفة رائعة الجمال كغيرها من غرف المنزل، وكان يسند السقف أعمدة ضخمة من رخام نادر ذي الوان أخاذة، كما كان على الجدران لوحات تمثل الأبطال القدماء.

www.rewity.com

وفي الغرفة بيانو جلست إليه زويا وهي تعزف قطعة موسيقية تمكن بليك من تمييزها بسرعة.

دخل الغرفة، ثم سار نحوها ببطء، كانت مستغرقة في العزف بحيث لم تلحظ وجوده الا عندما أصبح قريباً منها.

عند ذلك توقفت عن العزف، ولكنها لم تقف، ومرة أخرى، اشتبكت نظراتهما.

وأخيراً تمكن من القول: «أهي من تلحين والدك؟»

«نعم.»

جاء صوتها خافتاً كما توقع، فقال:

«لقد كنت قابلت والدك مرة.»

فلمس البريق في عينيها لذكر والدها.

واستغرب بليك ان يكون شعرها أشقر، ولكنه عاد فتذكر ان بيار فالون ليس أسود الشعر كأكثرية الفرنسيين، وخيل إليه، وان لم يكن متأكداً من ذلك، انه قد يكون من منطقة النورماندي في فرنسا.

وتقدم إلى البيانو حيث اتكأ عليه ثم قال لها: «حدثيني عن نفسك.»

فابتسمت وقالت: «ما الذي تريد أن تعرفه.»

«كيف تعلمت العزف بهذا الشكل؟»

فلم تظهر عليها الدهشة، وتكهن بأنها لا بد ورأته في المقصورة عندما كان ينتظر الأميرة سونيا.

فقالت: «عندما كنت صغيرة، كنت اشاهد والدي وهو يعزف.»

«هل كنت تذهبين إلى المسرح؟»

أجابت: «نعم... كنت في باريس أذهب إلى كل مكان كان

والدي يعزف فيه، ذلك ان أمي كانت معه وكان هو يريد وجودها هناك.»

وأدرك بليك، حتى ولو لم تقل هي شيئاً، انه كان يربط بين والديها حب عميق.

وكانت زويا تقول: «لأنني أحببت العزف، أخذ والدي يعلمني ذلك أثناء فراغه.»

«انك تعزفين بشكل رائع.»

فأجابت: «اتمنى ان يكون هذا صحيحاً، ولكن موسيقى والدي التي ألفها لي، ملهمة إلى درجة أنني عندما أسمعها اشعر وكأنني انتقلت إلى عالم آخر لا يوجد فيه سوى الشمس والألحان.»

كان هذا بالضبط ما شعر به عندما سمعها تعزف.

وكأنه كان يريد ان يتثبت من هذه الفكرة سألها: «اخبريني... اخبريني بالضبط عما كنت تفكرين فيه عندما كنت تعزفين.»

فقالت: «ان تلك القطعة الموسيقية المعينة من اعمال والدي، وهي جزء من معزوفة مكتملة، تجعلني أرى نفسي... في الربيع بين الأشجار المزهرة... والعصافير تبني اعشاشها، والأزهار تحوم حولها الفراشات.»

فعقد الذهول لسان بليك عن النطق لحظة عاد يقول بعدها: «علمت بأن أمك متوفاة، ماذا ستفعلين في حياتك عندما تغادرين بيترسبورغ؟»

أجابت: «لقد جئت إلى هنا في زيارة قصيرة فقط، لأن والدي طلب مني ذلك، ولكنني سمعت الآن ولأول مرة أن الفرنسيين في طريقهم إلى موسكو.»

«هذا احتمال.»

«إذن، يجب أن أكون مع والدي.»

فقال لها مواسياً: «ان والدك سيكون بأمان مهما حدث في موسكو، لأن بيار فالون يعتبر شخصية موسيقية عالمية، كما تعلمين.»

فقالت باسمة: «هذا صحيح، ولكن المدافع لا تصيب الأهداف دائماً، فإذا دار قتال في موسكو فسيشتد خوفي من أن يصاب والدي.»

سألها: «اتظنين انك بوجودك معه ستستطيعين منع ذلك؟»

أجابت: «سأدعو له من صميم قلبي أن يكون بأمان، ولكنني اتمنى لو أنني بجانبه.»

فقال: «أظن من الأفضل كثيراً لو يأتي والدك إلى بيترسبورغ، وعندما أعود إلى القصر ساحاول ان اعرف الوضع هناك بالضبط، وسأبلغ الأميرة مضيفتك.»

«هذه شهامة كبرى منك.»

تأوهت وهي تتابع قائلة: «ربما أخطأت بقدومي إلى هنا وترك والدي هناك، ولكنه أصر على أن أقبل دعوة الأميرة سونيا.»

فسألها: «هل انت سعيدة هنا؟»

لاحظ ترددها قبل ان تجيب: «أحب أن أكون مع تانيا... انها فتاة كريمة الخلق.» قالت ذلك كما لو ان تانيا طفلة كانت ترعاها.

سألها: «كم تبغلين من العمر؟»

أجابت: «في العشرين، تقريباً.»

فخطر بباله بما أنها في هذا العمر، لا بد وأن شاهدت في

أسفارها مع والديها، أموراً كثيرة من الدنيا، ما جعلها تبدو اكبر سناً، ومعرفة، ممن في سنها.

قال لها: «اعزفي لي.»

«وما الذي تريد سماعه؟»

أجاب: «أي شيء من تأليف والدك، وأيضاً المعزوفة المفضلة عندك.»

بدأت زويا بالعزف على مفاتيح البيانو تماماً، بأصابع متمرنة.

ذكّرته بلوحة افروديت الموجودة في منزله في هامبشاير والذي كان قد احضرها من اليونان أحد أجداده القدماء، وذلك منذ قرون مضت.

شعر وهي تتابع العزف، ان بامكانه قراءة افكارها ومدى تجاوبها مع الموسيقى، وقد خيل إليه ان الفصل فصل شتاء والثلوج تكسو الأرض وتغطي اغصان الشجر، بينما تجمد الجدول.

كان المشهد الذي تراءى له رائع الجمال ولكنه بارد، ناءٍ، بعيد عن احتياجات الانسان.

ثم، وبشكل غير مفهوم، إذا به يشعر بغيوم الشتاء تنقشع. وتغمر الشمس بأشعتها الأرض وشيئاً فشيئاً ابتدأت الثلوج في الذوبان لتتحول إلى جدول متدفق، كما ظهرت الحياة في اغصان الأشجار.

ابتدأت براعم النباتات في الظهور، وتفتحت أوائل أزهار الربيع من بين الحشائش.

كل ذلك شعر به في الإيقاع الموسيقي لتلك الأنغام، ولكن ذلك كان بالنسبة إلى بليك حقيقة وكأن حوادثها تدور

www.rewity.com

أمامه، إنه يكاد يشعر بدفء الشمس، وبرائحة أريج الزهور وهي تتفتح واحدة بعد أخرى.

ثم، لم يعد يقتصر ما رآه على الطبيعة فقط، بل كان هنالك انسان قادم من خلال الأشجار يتجه نحوه، فأدرك انها تبحث عنه بينما هو في انتظارها.

اخذت تقترب وتقترب أكثر منه، ولكن إذا بكل شيء يتلاشى.

ساد صمت لحظة، أدرك خلاله ان زويا انتهت من العزف وكانت تنظر إليه.

«هل اعجبتك... يا سيد بليك؟»

كان في نبرة صوتها شيء من القلق، فهي لم تفهم سبب تلك النظرة الغريبة في عينيه.

«كثيراً... جداً.»

وسمع بليك صوته وكأنه آت من بعيد جداً.

«إنني مسرورة لذلك... ولكن عزفي ليس بمهارة... عزف والدي.»

«ماذا يسميها... والدك؟»

كان الكلام ما يزال صعباً على بليك، لقد شعر وكأن صوته الحقيقي قد اختنق، وما يسمعه ليس بصوته.

فأجابت: «يسميها والدي، ذوبان الثلج، وما زال لها مقاطع كثيرة... ولكنني خشيت أن... تكون قد سئمت.»

اراد بليك ان يقول، انه ما كان لها ان تتوقف في هذا الوقت بالذات، بل ان تستمر لأنه يريد أن يعلم ما الذي سيحدث عندما يصل إلى الشخص الذي كان ينتظره.

ولكنه ما لبث ان حدث نفسه بأنه إذا قال شيئاً كهذا

فستعتبره مجنوناً. ثم فهو غير واثق من أنها... ستفهمه.

أدرك انها كانت تنتظر منه ان يقول شيئاً، ولكن قبل ان يتمكن من الكلام، قالت: «اظنك... فهمت ما كان والدي... يحاول التعبير عنه.»

فسألها: «ولماذا تظنين هذا؟»

أجابت ببساطة: «لا أدري بالضبط، ولكنني شعرت وأنا اعزف انك لم تسمع الموسيقى... فقط... انما شيئاً آخر.»

شعر بليك فجأة بشيء من الضيق، فقال بحدة: «يجب ان اذهب، اشكرك يا آنسة فالون لأنك عزفت لأجلي، انني واثق من ان والدك شديد الفخر بك.»

لكن، وبينما قال ذلك، أدرك أنه خيب أملها؛ لكنها وقفت تودعه باحترام.

فقال: «وداعاً.»

كان يريد ان يذهب وأن يبقى في نفس الوقت، وهذا ما جعله يشعر بحيرة كبيرة.

فأجابت: «وداعاً، يا سيد بليك.»

نطقت بهذه الكلمات بصوت خافت ودون ان تنظر إليه.

كان ثمة الكثير ليسأل عنه، ومع ذلك لم يكن يرغب في سماع الأجوبة.

وفجأة، ولأنه خرج عن هدوئه المعتاد، توجّه نحو الباب. وعندما وصل إليه، التفت الى الوراء، فرأى زويا ما زالت جالسة إلى البيانو.

لم تكن تنظر في أثره، كما كانت ستفعل أية امرأة أخرى، كانت تحدّق في البيانو، ومرة أخرى شعر بأنه خيب أملها.

غادر الغرفة وأغلق الباب خلفه. وعندما أخذ يهبط

السلم، حدّث نفسه بأن كل ما شعر به كان مجرد وهم وذلك بفعل حرارة الجو.

كانت عربته بالانتظار، وفي طريق العودة إلى قصر الشتاء، فكر في أنه أصيب بعدوى المشاعر المأساوية للروس، تلك المشاعر التي تتأرجح ما بين البهجة والإكتئاب في وقت قليل.

ولكن هذا التعليل لم يكن صحيحاً، إذ أنه، في الواقع، ليس مكتئباً ولا مسروراً.

لقد أثار ذلك ذعره.

وحدث نفسه بأنه من غير الممكن أن يعاني من العقد النفسية في هذا السن.

ولكنه اخذ يتساءل كيف امكن له هو بالذات، ومن بين الناس جميعاً، ان ينخدع، ليس فقط برؤية زويا، ولكن بأن يشعر بما يفكر به البعض.

فخيل له وبانزعاج شديد، بأنه حتماً على عتبة الجنون. ولكنه كان يعرف ان هذا غير صحيح.

وعاد يحدث نفسه وهو ينزل من العربة ليصعد إلى قصر الشتاء، بأنه كلما أسرع في نسيان هذا الأمر السخيف، كان ذلك افضل.

وقرر ان يحاول معرفة آخر اخبار الجبهة الحربية، وأن يمضي بعدها ساعة على الأقل في تدوينها بالشيفرة إلى اللورد كاستلريغ في لندن.

دخل الردهة وناول قبعته إلى خادم الاستقبال، عند ذلك اقبل نحوه احد فرسان الحرس الذهبي والذي كان يقوم بواجبه في الحراسة.

قال له بالفرنسية: «مساء الخير، يا سيد بليك، ان الأميرة كاتارينا باغريشين ستكون شاكرة لو انك قمت بزيارتها قبل ان تذهب إلى غرفتك.»

فأجاب بليك: «طبعاً، يسرني جداً رؤيتها.»

طلب الضابط من احد الخدم مرافقة بليك إلى جناح الأميرة. ففكّر وهو يتبع الخادم، في أن الأميرة ستعيده إلى الأرض مبددة كل تصوراته السخيفة تلك.

الفصل الثالث

لم يكن بليك متأكداً من انه قد يجد كاترينا بمفردها، لكن وعندما أدخله الخادم إلى غرفة جلوس واسعة تعبق بأريج الزهور، وجد عدداً من الناس هناك. تقدمت كاترينا نحوه، ورأى مما ارتسم في عينيها، مبلغ سرورها برؤيته.

صافحها، ثم اتجه إلى حيث يجلس القيصر وزوجته.

كانت زوجة القيصر، اليزابيت فيودوروفنا الرفيقة الملائمة لزوجها الكسندر، ولكنها لسوء الحظ، كانت مصابة بكلف قبيح في وجهها.

ولكن بليك، على كل حال، يراها دوماً حسنة المعشر، بالغة اللطف، وأكثر رزانة واستقرار في تقبل الأمور من زوجها القيصر.

ولم يكد يتحدث معها لدقائق قليلة، حتى قاطعهما القيصر بقوله وهو يأخذ بليك جانباً وبعيداً عن الآخرين: «لديّ ما أقوله لك، يا ويلمنستر.»

فنظر إليه بليك متوجساً، ولكنه رآه أفضل مزاجاً مما كان عليه أمس بكثير.

لقد فارقته علامات القنوط التي كانت دوماً تجعله ينكمش على نفسه، وهذا ما يجعله عادة أقل هيبة وتأثيراً في النفوس، ولكنه بدا الآن بتلك الشخصية القيادية التي يتمتع بها الروسيون أثناء الاستعراض العسكري، فسأله: «ما الأمر أيها القيصر؟»

فأجاب القيصر بوقار: «إن روسيا ستهزم نابوليون، فليس هناك من ضرورة للخوف.»

نظر إليه بليك غير مصدق، بينما تابع القيصر يقول: «لقد تلقيت هذا الصباح رسالة أنبأتني بأن مخاوفي وقلقي لم يكن لهما اساساً مطلقاً.»

«أهي رسالة من الجبهة، أيها القيصر؟»

فأجاب القيصر: «كلا، بل من المجهول.»

تساءل بليك في نفسه عما إذا كان أحداً في انكلترا سيصدق هذا الأمر إذا هو دوّنها في رسالة إلى المسؤولين في لندن.

وكان القيصر يقول: «أمضيت الليلة الماضية وقد استبدّت بي المخاوف إلى أن نهضت عند الفجر واتجهت إلى النافذة ونظرت إلى الخارج، فأحسست فجأة بمخاوفي تبتعد عني.»

وجذب نفساً طويلاً وكأنه كان يتذكر ما حدث بالضبط، ثم تابع يقول: «حتى انني شعرت بأن العسر انقلب إلى يسر.»

فسأله بليك: «وهل أنت متأكد من صدق مشاعرك أيها القيصر؟»

أجاب القيصر بثقة: «كل التأكيد يا سيد بليك.»

قال بليك وقد وجد صعوبة في أن يخفي نبرة السخرية التي بدت في صوته: «إنني مسرور جداً لما تشعر به من راحة نفسية.»

وكأنما أحست كاتارينا بأن بليك يتجه في منزلق خطر، جاءت إليهما وهي تقول بمرح: «ليس مسموحاً لك بالتحدث

www.rewity.com

بالأسرار أثناء حفلتي، أيها القيصر، ثم انني متشوقة إلى أن أسمع أخبار زيارة صديقنا الانكليزي للأميرة سيفولسوف.»

كان بليك يدرك بأنها طريقة كاتارينا في إبلاغه بأنها تعرف تماماً أين كان، فإذا كان يظن أن في إمكانه التسلّل من القصر دون أن يعلم أحد، فهو مخطىء جداً.

فسألها: «ما الذي تتوقعين أن يحدث؟»

نظرت إليه قائلة: «لقد تساءلت عن شيء واحد، وهو إن كنت قابلت هناك فتاة الثلج وما رأيك فيها؟»

فسألها مستفهماً: «فتاة الثلج؟»

وسألها القيصر: «هل تشيرين بذلك إلى إبنة بيار فالون؟ لقد أخبروني أنها جاءت إلى بيترسبورغ.»

أجابت كاتارينا: «إنها تقيم مع الأميرة سيفولسوف، أيها القيصر وأنا واثقة من أنها تركت خلفها في موسكو الكثير من القلوب المحطّمة.»

فسألها بليك: «ولماذا تسمى تلك السيدة بفتاة الثلج؟»

ضحكت كاتارينا وقالت: «بإمكان السيد بوريس أن يعطيك التفسير الجيد والمقنع.»

فقال القيصر: «هذا صحيح، لقد سمعت أن الرصيف خارج منزل فالون قد تآكل لكثرة ما صعد ونزل عليه السيد بوريس.»

فقالت كاتارينا ضاحكة: «ولكن الباب كان دائماً موصداً في وجهه، والآن بعد أن طار العصفور، أنا واثقة من أن السيد بوريس، في قمة اليأس.»

قال بليك: «من الصعب عليّ أن أفهم ما تقولين.»

أجابت كاتارينا: «ليس ذلك صعباً في الحقيقة. ان السيد بوريس معجباً اشدّ الاعجاب بزويا فالون قد سلبت لبّه وذلك من أول لحظة رآها فيها. ولكن سمعته السيئة جعلت أمها أولاً، ثم والدها ثانية، يوصدان الباب في وجهه، بينما بوريس لم يتعود الطرد من البيوت.»

فقال القيصر: «إن هذا درس سينفعه.» ثم ابتعد عنهما ليتحدث إلى شخص آخر.

وكان هذا رأي بليك أيضاً، ولكنه في نفس الوقت شعر بغضب مفاجيء لفكرة أن بوريس يلوث سمعة فتاة نقية مثل زويا.

ولسبب لم يستطع تفسيره، لم يخطر في ذهنه أن من بمثل جمال زويا، قد يجذب أحد، على الاخص واحداً مثل بوريس، ذلك من البراءة بحيث تبدو بعيدة كل البعد عن مؤامرات ومكائد عالم المجتمعات هذا. وفهم الآن، السبب الذي جعل بيار فالون يصرّ على ابنته بترك موسكو والمجيء إلى بيترسبورغ لتعيش في حماية الأميرة سيفولسوف.

فهي لا بد تعلم جيداً، كما يعلم بليك، أيّ نوع من الرجال هو بوريس.

كان قد تزوج في شبابه من أميرة المانية لا تمتاز بأي جمال أو ذكاء، ثم تركها مع أولادهما في مزرعته في الريف مانعاً إياها من الحضور إلى أيّ من موسكو أو بيترسبورغ.

وأدرك بليك سبب حذر فالون من تقرّب بوريس من ابنته. وكأنما أدركت كاتارينا ما يدور في ذهنه، قالت له:

«بوريس هو بوريس، ونحن جميعاً نعرف ما هو عليه، وبعد فقد تكون فتاة الثلج مخطئة حين تصدّه.»

«أتريدين القول إن فتاة صغيرة مثلها عليها القبول ببوريس، بينما له مثل تلك السمعة السيئة؟»

قال هذا الكلام بحدة، فنظرت إليه بذهول ثم قالت: «لم أعرف أن لديك مثل هذا القدر من العداء لبوريس. أنا شخصياً لا تهمني افعاله، ولكنني أتساءل في معرض المناقشة فقط، ما البديل لذلك بالنسبة إلى إبنة موسيقار فرنسي؟»

فهتف: «إنك وسونيا سيفولسوف تتحدثان عن ذلك الموسيقار وكأنه عازف مزمار في فرقة متجولة. إن الرجل عبقري! لم أرَ من قبل الأمير ويلز يبدي كل ذلك التأثر والحماس كما رأيته وهو يستمع إلى عزفه في قصر كارلتون.»

فهزت كاتارينا كتفيها بعدم اكتراث وهي تقول: «إنني أوافقك على أن موسيقاه جيدة، وأنه حصل على نجاح كبير في عالم الموسيقى، ولكننا نتحدث عن ابنته، فتاة الثلج.»

«هذا ما أتمناه أن تكون بالنسبة لبوريس.»

فأجابت: «لقد سمعت أنها في الواقع، لم تشجعه في مقاصده، ولكنها قد تكون على معرفة بشخص لا أهمية له وذلك دون علم والدها.»

وكان بليك على وشك القول بأن زويا لا يمكن أن تخدع أحداً، وخصوصاً والدها، لأن ذلك ليس من خصائصها... ولكنه عاد ففكر في أنه سيبدو مغفلاً في مدافعته عن

فتاة لم يرها سوى مرة واحدة وبالتالي لا يعرف عنها شيئاً.

وماذا يهمه ممن يطاردها، أو يُعجب بها، ولكنه وهو يناقش نفسه، كان يعلم أن كل ما لديه من الاحترام للنساء، كانت هي بالتحديد تزيده احتراما وتقديراً، وشعر بدافع يدفعه إلى رؤية فالون والتحدث إليه عن مستقبل ابنته، لأن ينصحه مثلاً، بأن يأخذها إلى انكلترا حيث لا شك أنها ستكون مقبولة اجتماعياً أكثر منها في روسيا التي تسيطر عليها الطبقات، حتى أنه لا يوجد في العالم عجرفة تماثل تلك التي تسود المجتمع المحيط بالقيصر.

فسونيا سيفولسوف وكاتارينا باغريشين كانتا على حق حين قالتا بأنه من المستحيل أن يتقدم أحد من أسرة والدة زويا، للزواج منها. ولم يستطع بليك أن يتصورها تنزل من البرج الذي تصوّره لها في خياله، وأن تسيئها تلك الحياة التي كان بوريس مستعداً لأن يقدمها إليها.

وتساءل عما يدعوه إلى الاهتمام بها بهذا الشكل، بينما أخذ يمشي في قاعة الاستقبال محيّياً أصدقاء قدماء له، ومتعرفاً بواسطة كاتارينا إلى أهم الشخصيات في حاشية القيصر، لكن ذهنه ظلّ مشغولا بزويا.

لم يكن في الواقع، يقوم بواجبه في سبر ما يفكرون به بالنسبة إلى الحرب ونتائج غزو نابوليون.

وعندما خرج القيصر وزوجته، تبعهما بقية الضيوف، فأدرك بليك أنه إذا كان عليه تبديل ملابسه لأجل تناول العشاء في الجناح الملكي، فيجب أن يسرع بالذهاب إلى جناحه الخاص.

www.rewity.com

وقالت له كاتارينا وهو يودعها: «عد باكراً هذا المساء لأنني أريد التحدث معك.»

فسألها: «تتحدثين معي؟»

فقالت بلطف: «هذا راجع إليك.»

عندما وصل إلى غرفته لم يكن يفكر في كاتارينا بل في زويا.

ومرة أخرى لم يصدق أنه شعر ما شعر به خلال عزفها على البيانو، وسار نحو النافذة ليستمتع بمنظر الشفق منعكساً على نهر نيفا. حدث نفسه قائلاً، كما كان الكثير من الروسيين قد فعلوا قبله: «لماذا لم ينشىء بيتر القيصر مدينته في مكان آخر من هذه البلاد؟»

ووقف يحدّق في النهر، متسائلاً عن كيفية منظره عندما يتجمد في فصل الشتاء.

فتاة الثلج، أتراها هي أيضاً ستذوب مع قدوم الربيع كما تصوّرها عندما عزفت له تلك القطعة الموسيقية التي ألّفها والدها؟

ورأى نفسه يفكر في الشخص الذي كان تقدم نحوه من بين الأشجار، ولكنه لم يشأ الاعتراف بمن عسى أن يكون ذلك الشخص.

واستدار ليجد خادمه الخاص في انتظاره حاملاً بيده سترة العشاء.

كانت سترات بليك من صنع ويستون خيّاط أمير بريطانيا، وكانت متقنة التفصيل، لدرجة أن القيصر مرة، أخذ ينظر إلى احدى ستراته بعين حاسدة.

وكان الخادم قد أخرج الأوسمة من العلب المخملية

وعلقها على السترة. ألقى بليك نظرة على نفسه في المرآة المذهبة والتي كانت قد استوردت أصلاً من فرنسا، فريدة الشكل في فنها.

وعندما نبهته الساعة الموضوعة على رف المدفأة إلى أنه لم يبق أمامه سوى وقت قصير ليصل فيه إلى جناح القيصر، أخذ يسرع الخطى في الممرات، التي بدت له تزداد خطوة يتقدمها.

وكان من عادة كل قيصر أن يشغل من قصر الشتاء جناحاً غير الذي كان يشغله القيصر السابق، وقد اختار القيصر الحالي الكسندر، جزءاً يعكس ذوقه الذي كان يميل إلى البساطة.

لقد كان أول قيصر من آل رومانوف يستغني عن الوجاهة الملكية، فلا يتحلى بالمجوهرات كما يرفض من الآخرين النزول عن الجياد عندما يقابلهم واقفاً على الرصيف.

وكان يحب التنقل بين ضيوفه، وتصرفاته أشبه بتصرفات رجل عادي مهذب، فهو يستعمل عبارات مثل: «أرجو أن تعذرني وأرجو أن تشرفني...»

ولسوء الحظ، كانت هذه الصفات تقلّل من قدره في نظر الروسيين بدلاً من أن تزيد من احترامهم له، وكان بليك مولعاً به، خاصة وهو يراه يحكم البلاد بطريقة مختلفة عن طريقة والده المجنون واستبداد الامبراطورة كاترين.

بليك كان قد قرأ تقارير من السفير الانكليزي عن حالة الفقر والمعاناة في روسيا والتي لا يمكن تصديقها، وكان

يدرك أنه لا يرى، في غرف قصر الشتاء المعطرة والبالغة الاتساع، روسيا الحقيقية في الخارج.

لقد تحدثت تلك التقارير عن الغرف القذرة تحت الأرض، والتي لا تبعد عن القصر كثيراً، حيث يتكدس الرجال والنساء على المقاعد الخشبية المستطيلة، أو على خرقٍ بالية فوق الأرض الموحلة الرطبة.

هنالك ستون... ثمانون... مائة ألف لا يجدون الكفاية من الطعام. ليس ثمة وجه غير مشوش وملطخ وكليل البصر من هذا الفقر المدقع ثيابهم رثة، وأكثرهم تملأ وجوههم الرضوض وأضعف من أن يستطيعوا الكلام، كل ما يهمهم هو أن يبقوا أحياء فلا يدفنوا تحت التراب البارد المثلج، إنهم حثالة دولة يبلغ تعدادها ثمانية ملايين ولا يمكن القيام بشيء لأجلهم.

وشعر بليك فجأة بأنه مقيّد ويكاد يختنق، لم يستطع أن يفهم السبب في هذه الالحاح المفاجيء الذي طرأ عليه في التحرر من هذا المجتمع الذي جاء إليه خصيصاً من لندن للبحث في أمره، والذي كان يبدو من نواحٍ كثيرة أكثر صقلاً وجاذبية مما كان يتوقع.

فقال في نفسه: «يجب أن أرحل بعيداً عن هنا. وشعر بالدهشة من الإلحاح الشديد الذي يشعر به.

* * *

اندفعت تانيا إلى غرفة زويا التي كانت جالسة تخيط أحد أثوابها الذي كان قد تمزق، وهي تقول: «ستأخذني أمي معها لزيارة إحدى صديقاتها، لقد

سألتها إن كان بإمكانك أن تأتي معنا، ولكنها تريد أن تأخذني وحدي.»

فأجابت زويا: «هذا طبيعي، وسأكون هنا عندما تعودين.»

فقالت تانيا وهي تزمّ شفتيها استياءً: «ولكنني أريدك أن تأتي معنا، فكم سيسرنا، بعد ذلك، أن نجلس معاً ونأخذ بالحديث عن الناس الذين تعرفنا إليهم وعن الكلام الذي تحدثوا به.»

فقالت زويا: «إذا كانت أمك تريدك وحدك معها، فليس ثمة ما يمكنك عمله بهذا الشأن. ولكن بإمكانك أن تحفظي جيد كل ما ترينه وتسمعينه، ومن ثم تخبريني عنه، وسيكون هذا جميلاً.»

فقالت تانيا متذمرة: «لن يكون جميلاً بالنسبة إلي، لا أدري لماذا تتصرف أمي بهذا الشكل المملّ، خاصة وانها تعلم كم نحن سعيدتين معاً.»

فقالت زويا باسمة: «إن أيّ مضيفة ستشعر بالحرج إزاء ثلاث نساء دون رجل يرافقهن، اذهبي ومتعي نفسك يا تانيا، وعندما تعودين سنخطط لعزف موسيقي جديد يكون مفاجأة لأمك.»

فقالت تانيا: «إنني أفضل أن أعزف أمام السيد بليك الوسيم الذي كان هنا أمس، لقد حدثتني أمي أن لديه شقيقاً بالغ الظرف يريدني أن أتعرف إليه، وأنا أتطلع بشوق لنسافر إلى انكلترا والتعرف عليه.»

ولاحظت زويا قولها نسافر بالجمع، ولكنها لم تقل شيئاً. ثم ودعتها وهي تقول: «لا تتركي أمك تنتظر طويلاً.

www.rewity.com

إنك تبدين جميلة جداً، وأنا واثقة من أنك ستجدين الكثير ممن سيقولون لك نفس الشيء.»

فقالت تانيا: «لشدّ ما أتمنى لو كنت معنا.»

ثم أسرعت تغادر الغرفة تاركة الباب مفتوحاً، أرادت زويا أن تقفله، ولكنها ما لبثت أن غيرت رأيها، فوضعت الثوب الذي كانت تخيطه جانباً، ثم خرجت لتنزل إلى الطابق الأسفل.

حيث أنه لم يعد هناك أحد في المنزل، رأت أن الفرصة سانحة أمامها لكي تقوم بالعزف على البيانو، فتجرب المعزوفة الجديدة التي كانت وصلت من موسكو هذا الصباح.

لقد أرسلها إليها والدها مصحوبة برسالة يخبرها فيها عن مبلغ النجاح الذي حقّقته فرقته الليلة الماضية، ثم أضاف: «هنالك شائعات مقلقة تثير رعباً لا لزوم له، إنني مسرور لكونك في أمان في بيترسبورغ. ولكنك تعلمين كم أفتقدك وكم أتشوق لنكون معاً مرة أخرى، لا تقلقي لأيّ شيء، ومتعي نفسك. إنني أحبك يا ابنتي العزيزة، وفي كل مرة أعزف الموسيقى الخاصة بنا أشعر بأننا قريبان من بعضنا البعض.»

وكانت زويا قد قرأت الرسالة أكثر من مرة، فهي ترى أن ليس ثمة شخص مثل والدها، ففي ألحانه يعبّر عما يرغب الانسان في سماعه بالضبط، فيجعل النفس تمتلىء بهجة وسعادة.

فقد كان صحيحاً قوله انهما عندما كانا يؤديان بعض المعزوفات المعينة، كانت تشعر بمزيد من التقارب الذي يملأها سعادة.

كانت تشعر، أن في نجاح والدها، شيئاً من التعويض له عن فقدان زوجته التي كان يحبها بتفانٍ لم يتبدل، منذ اللحظة التي تزوجا فيها.

فقالت زويا في نفسها: «هذا النوع من الحب الذي أتمنى أن أفوز به يوماً ما.»

ولأنها كانت قد عاشت في هذا الجوّ المثالي من السعادة الزوجية، فقد كانت تعلم أنها لن ترضى أبداً بحب لا يكون الأفضل.

كانت تجد صعوبة في التعبير عما تشعر به بالكلمات ولكن كان بإمكانها أن تقول ذلك بواسطة الموسيقى. وكما أن الكثير من مؤلفات والدها الموسيقية أُلفت للتعبير عن حبه لزوجته، فعندما تعزف هذه الموسيقى حين تكون بمفردها، كانت تصف بحثها عن روعة ذلك الحب الذي جمع والديها.

لقد حدثتها والدتها بصراحة لم تعتادها عن حقيقة وضعها في الحياة.

كانت زويا تعلم أن عائلة أمها، آل ستروفوسكي هي من إحدى أهم العائلات في روسيا.

واخبرتها أمها بأنها اقترفت غلطة، حين تزوجت من معلّم فرنسي كان موظفاً عند العائلة يعلمها ويعلم أخوتها اللغة الفرنسية.

لقد قالت الأميرة ناتاشا حينذاك: «إن الأسر الارستقراطية، مثلها في أيّ بلد آخر، لا يقرنون الزواج بالحب، أو الحب بالزواج.»

فاستمعت زويا إليها بدهشة بينما كانت أمها تتابع

قائلة: «كنت أعلم أن جدي كان يبذل جهده ليعثر لي على زوج يوافق عليّ لما يجري في عروقي من دم آل ستروفولسكي.»

واحتد صوت الأميرة وهي تقول: «لقد ثار في أعماقي شيء ضد فكرة أن من سيتزوجني سيقبل بي على مضض منه.»

«بامكاني تفّهم ما شعرت به يا أمي.»

فقالت الأميرة ناتاشا بنعومة: «كنت أريد الحب الحقيقي، الحب الذي منحته أمي للسيد أورلوف، والذي لم تستطع أن تمنحه لسواه.»

وتابعت وهي تضمّ ابنتها: «قد تواجهين، ذات يوم يا حبيبتي، نفس الوضع الذي كنت واجهته، إنني أؤكد لك أن الحب، الحب الحقيقي مثل الذي أشعر به نحو والدك... يستحق كل تضحية... ولا شيء عدا ذلك ذات أهمية.»

لقد شاهدت زويا عذاب والدها عندما ماتت أمها، لقد أدركت وهي تلمس معاناته، أن الحب، لهو أثمن شيء في العالم.

كما أدركت، فيما بعد، أن وفاة أمها قد أكسبت موسيقى والدها بعداً جديداً.

لقد أصبح في موسيقاه عمقاً أكثر من الأول، كما أنه نهض بالفرقة الموسيقية التي يقودها إلى مقام لم يصل إليه من قبل.

وقالت زويا في نفسها بأن هذا ما يفعله الحب عادة، فهو يعزّز من طاقات من يعيشونه، ويوسع آفاقهم.

وبينما كانت تهبط السلم، سمعت من الأسفل صوت مغادرة الأميرة وابنتها تانيا من القصر.

لقد أدركت، السبب من وراء عدم قبول الأميرة أخذها معهما لزيارة أصدقائها، هذا وإن لم تشأ أن تخبر تانيا بذلك.

لم يكن السبب من ذلك كونها تشعر بشيء من الحرج من صفة والدها كموسيقار فرنسي، ولكن لأن الأميرة تدرك أنه بالرغم من جمال تانيا، فقد كانت صديقتها، زويا تجذب الانظار أكثر.

يقول المثل ان أعين الوالدين المحبة عمياء، ولهذا، كانت زويا واثقة من أن الأميرة حين دعتها لمرافقتها إلى بيترسبورغ، لم تفكر أن تأخذها مع تانيا إلى عالم المجتمعات.

ولم تكن زويا، في الواقع تحبذ فكرة السفر إلى بيترسبورغ وترك والدها، ولكن بيار فالون أصرّ عليها بالقبول، قائلاً بخشونة: «إن بوريس يزداد إعجاباً بك يوماً بعد يوم، وعندما لا أكون معك، يا ابنتي، فإن القلق عليك منه يستبد بي، ومثل هذا القلق، لا يسلبني راحة البال فقط، وإنما يبعث الاضطراب في عملي.»

فقالت بتردد: «ولكن... قد يلحق بي إلى... بيترسبورغ.»

فأجاب: «قد يفعل ذلك، ولكن الأميرة ستتصرف معه بطريقة أفضلب من طريقتي.»

وأدركت زويا ما الذي كان يعنيه، لقد كان من الصعب على رجل، حتى ولو كان بشهرة والدها، أن يواجه وأن يسيء لرجل بأهمية السيد بوريس، هذا بينما الأميرة

www.rewity.com

قائلة: «كنت أعلم أن جدي كان يبذل جهده ليعثر لي على زوج يوافق عليّ لما يجري في عروقي من دم آل ستروفولسكي.»

واحتد صوت الأميرة وهي تقول: «لقد ثار في أعماقي شيء ضد فكرة أن من سيتزوجني سيقبل بي على مضض منه.»

«بامكاني تفّهم ما شعرت به يا أمي.»

فقالت الأميرة ناتاشا بنعومة: «كنت أريد الحب الحقيقي، الحب الذي منحته أمي للسيد أورلوف، والذي لم تستطع أن تمنحه لسواه.»

وتابعت وهي تضمّ ابنتها: «قد تواجهين، ذات يوم يا حبيبتي، نفس الوضع الذي كنت واجهته، إنني أؤكد لك أن الحب، الحب الحقيقي مثل الذي أشعر به نحو والدك... يستحق كل تضحية... ولا شيء عدا ذلك ذات أهمية.»

لقد شاهدت زويا عذاب والدها عندما ماتت أمها، لقد أدركت وهي تلمس معاناته، أن الحب، لهو أثمن شيء في العالم.

كما أدركت، فيما بعد، أن وفاة أمها قد أكسبت موسيقى والدها بعداً جديداً.

لقد أصبح في موسيقاه عمقاً أكثر من الأول، كما أنه نهض بالفرقة الموسيقية التي يقودها إلى مقام لم يصل إليه من قبل.

وقالت زويا في نفسها بأن هذا ما يفعله الحب عادة، فهو يعزّز من طاقات من يعيشونه، ويوسع آفاقهم.

وبينما كانت تهبط السلم، سمعت من الأسفل صوت مغادرة الأميرة وابنتها تانيا من القصر.

لقد أدركت، السبب من وراء عدم قبول الأميرة أخذها معهما لزيارة أصدقائها، هذا وإن لم تشأ أن تخبر تانيا بذلك.

لم يكن السبب من ذلك كونها تشعر بشيء من الحرج من صفة والدها كموسيقار فرنسي، ولكن لأن الأميرة تدرك أنه بالرغم من جمال تانيا، فقد كانت صديقتها، زويا تجذب الانظار أكثر.

يقول المثل ان أعين الوالدين المحبة عمياء، ولهذا، كانت زويا واثقة من أن الأميرة حين دعتها لمرافقتها إلى بيترسبورغ، لم تفكر أن تأخذها مع تانيا إلى عالم المجتمعات.

ولم تكن زويا، في الواقع تحبذ فكرة السفر إلى بيترسبورغ وترك والدها، ولكن بيار فالون أصرّ عليها بالقبول، قائلاً بخشونة: «إن بوريس يزداد إعجاباً بك يوماً بعد يوم، وعندما لا أكون معك، يا ابنتي، فإن القلق عليك منه يستبد بي، ومثل هذا القلق، لا يسلبني راحة البال فقط، وإنما يبعث الاضطراب في عملي.»

فقالت بتردد: «ولكن... قد يلحق بي إلى... بيترسبورغ.»

فأجاب: «قد يفعل ذلك، ولكن الأميرة ستتصرف معه بطريقة أفضلب من طريقتي.»

وأدركت زويا ما الذي كان يعنيه، لقد كان من الصعب على رجل، حتى ولو كان بشهرة والدها، أن يواجه وأن يسيء لرجل بأهمية السيد بوريس، هذا بينما الأميرة

سيفولسوف يمكنها التحدث إليه بمساواة. وأدركت زويا أن الأميرة، لن تسمح له بالتصرف بشكل مسيىء، بأي شكل من الأشكال أثناء وجودها مع تانيا.

وهكذا، نزولاً عند إصرار والدها، وخوفها الشديد من بوريس، جعلاها توافق أخيراً على الذهاب إلى بيترسبورغ مع الأميرة وحاشيتها المرافقة.

لقد غادرتا موسكو في موكب لا يقل عن ثماني عشرة عربة. ورغم أن الرحلة كانت متعبة، إلا أن زويا شعرت باهتمام بالغ بالأرياف التي كانوا يجتازونها، حتى أنها كادت تبكي أحياناً لمظاهر الفقر المدقع بين الفلاحين.

لقد استغرقت الرحلة وقتاً طويلاً وذلك لسبب بسيط، وهو أنهم كانوا ينزلون ضيوفاً أثناء السفر على أصدقاء الأميرة.

في ذلك الوقت، أدركت الأميرة مقدار ما تتمتع به زويا من جاذبية، فتمنت لو لم تستعجل بدعوتها للإقامة معها في قصرها في بيترسبورغ.

وكان بوريس، هو الذي أطلق على زويا لقب فتاة الثلج، فكان أن سبقها هذا اللقب إلى كل مكان نزلوا فيه ضيوفاً، فينظرون إليها باهتمام، متسائلين عما إذا كان الحظ سيسمح لهم بالتكلم معها.

وهذا الاهتمام بزويا، جعل الأميرة في غاية الغضب فقد كانت تريد أن يتركز اهتمام كل شخص على ابنتها فقط.

ولكن ما أن وصلوا إلى المنزل الثاني في رحلتهم، حتى

كان واضحاً أن محط الاهتمام لزويا كالمرات السابقة. وهكذا وضعت الأميرة خطتها على هذا الأساس. حدثت نفسها بأن على زويا أن تأخذ مكانها الطبيعي حين تصل إلى بيترسبورغ فتكون المرافقة والمعلمة لتانيا.

عند ذلك لن تظهر بين الناس ولن تقبل الدعوات إلى الحفلات.

لم ترد أن تكون قاسية، فقد كانت سونيا، في الواقع، امرأة ذات قلب ودود عطوف، كما لم يكن لها أعداء، ولكنها كانت على استعداد للقيام بأي شيء في سبيل مصلحة ابنتها، بتصميم وعزم على أن تحصل تانيا على أفضل زواج تتمناه كل فتاة.

وكان هذا يعني، أن تُزوّج تانيا من رجل من خارج روسيا.

ذلك لأنها كانت ترى الكثير من مظاهر الانحلال في المجتمعات، تحت حكم آل رومانوف، وكان من المستحيل أن تجد شخصاً سعيداً بين أقرباء زوجها أو معارفها.

حتى القيصر، مع كل قيمه ومثله العليا والتي جعلت الكثيرين يعتقدون بأن تسلمه السلطة، يبشّر ببزوغ عهد جديد، قد أذعن لإرادة شعبه الذي طالبه بالعودة إلى زوجته. وهكذا كان الاعلان عنهما في كل مكان، بأنهما أجمل زوجين في اوروبا.

ولكن هذا لا يعني أن القيصر، أو زوجته كانا سعيدين. ولهذا كانت الأميرة لا تريد لابنتها فقط أن تكون في مركز اجتماعي ذي أهمية بالغة، وإنما أن تجد السعادة أيضاً.

وكانت تعتقد دوماً أن الرجل الانكليزي هو الزوج

الممتاز، فيخلص لزوجته ويعيش معها ومع أولاده بسعادة تامة.

ولهذا اعتبرت الأميرة، حين علمت أن السيد بليك ويلمنستر سيحضر إلى بيترسبورغ وسينزل ضيفاً على القيصر، أن هذا بالفعل من حسن حظها.

واتخاذه صهراً الآن لهو نصر كبير، ورغم تأكيده على أن يبقى اعزب، إلا أن رجالاً أكثر قساوة وعناداً منه، كانوا قد غيروا رأيهم من تلك الناحية.

وعندما ابتعدت العربة بها وبتانيا، عن القصر أخذت مرة أخرى تحدثها عن مركز بليك الاجتماعي في انكلترا وعن منازله الرائعة، وممتلكاته الكثيرة، وكذلك عن صفاته الشخصية الحسنة.

* * *

وفي نفس الوقت، كانت زويا وهي تهبط السلم، تفكر في بليك. لقد كانت قد لمحته وهي تعزف، واقفاً في مؤخرة المقصورة التابعة للمسرح، وفكرت فيما بعد، أنه لمن الغرابة ان تنتبه اليه.

ذلك لأنها عادة تركز اهتمامها على موسيقى والدها، فتسهو عن الواقع كلياً وتهيم في العالم الذي أوجده لها، ما يجعلها تغفل عن كل شيء يدور حولها.

ومع هذا، وبشكل خارج عن إدراكها، كانت تعلم أن ثمة رجلاً يقف في المقصورة. وبعدما انتهت من العزف، رأته بوضوح هذه المرة خلف الأميرة التي بدت أنها لم تلاحظ وجوده.

وعندما دخلت إلى الصالون الأبيض، ووجدته هناك، شعرت أن موسيقى والدها ما زالت مستمرة، شعورها عادة بالنسبة لغيره من الناس... لقد كان في هذا شيئاً مختلفاً، وغريباً.

وكان أبوها يفهم شعورها جيداً، وقد قال لها مرة: «عندما أؤلف الألحان يا ابنتي أشعر أحياناً وكأنني أفتح باباً في نفسي تاركاً الموسيقى تتدفق إليها، فلا يكون عليّ عند ذلك، إلا الاستماع، وهذا لا يتطلب مني أيّ جهد.»

فأجابته زويا: «وأنا أستمع يا أبي، أعرف ما عليّ أن أفعل.»

فابتسم، عند ذلك الواحد منهما للآخر، وهما يعلمان أنه لا حاجة لهما إلى الكلام لشرح ما يحدث، لأنهما كانا متفهمين كثيراً.

«وبليك متفهم هو الآخر.» قالت في نفسها وهي تتجه نحو البيانو.

ثم جلست تعزف قطعة من موسيقى والدها التي كانت قد عزفتها لبليك.

وفجأة، شعرت كما قال والدها بباب ينفتح في نفسها فبدأ العزف بشكل مختلف تماماً، وسمعت الموسيقى تتدفق من نفسها وإلى أصابعها فتحوّلها إلى أنغام بديعة.

أخذت بالعزف، وإذا بها ترى بليك بعين الرؤية، وقد تشابكت نظراتهما في بدء تعارفهما. ثم رأت التعبير الذي ساد ملامحه عندما انتهت من العزف.

لقد أدركت، في تلك اللحظة، أنه قد فهم ما كانت تحاول التعبير عنه، كما شاهد ما شاهدته.

www.rewity.com

وسألت نفسها كيف كان من الممكن هذا، ولكنه ممكناً، وقد حدث.

واستمرت بالعزف إلى ان لم تعد تجد ما يدعوها إلى الدهشة حيث ملأت موسيقاها جوّ الغرفة، ودون سابق انذار، شعرت به يدخل الآن ويتوجه نحوها.

ألقت نظرة سريعة عليه وتابعت العزف، بينما اتكأ على البيانو كما فعل في اليوم السابق.

وعندما توقفت عن العزف، قال بليك: «كنت أعلم أنني سأجدك بمفردك هنا.»

«وكيف... علمت... ذلك؟»

فأجاب: «لقد علمت الليلة الماضية أن الأميرة وابنتها ستزوران القصر عصر اليوم، فساورني شعور بأنك لن تكوني معهما.»

سكتت زويا حيث لم تجد أي ردّ وتابع بليك يقول: «قد أكون مخطئاً، ولكنني عندما صعدت السلم وسمعتك تعزفين، ساورني شعور غريب بأنك كنت تفكرين بي.»

ومرة أخرى، نظرت زويا في عينيه، ثم قالت بنعومة: «كنت أفكر... بك وفي أن شعورك بالأمس، لدليل بأنك فهمت عزفي لموسيقى والدي.»

أجاب: «نعم، هذا صحيح، لقد حاولت مقاومة ذلك، ولكنني فهمت كل شيء.»

وساد سكون قصير، ثم سألها: «هل ما كنت تعزفينه هو من تأليفك؟»

«لقد سمعته لأول مرة في نفسي... بعدما أخذت... بالتفكير بك.»

فحبس بليك أنفاسه، كان في هذا الاعتراف، بساطة حقيقية. فسألها: «ما الذي فعلته بي، يا زويا؟ لم أشعر بمثل هذا في حياتي كلها.»

همست: «بمثل... ماذا؟»

«مثل أن أرى... أشياء... أسمع... أشياء تغلّف مشاعري بالغموض، أو لا ادري سميه ما شئت. فهذا أمر جديد عليّ.»

فسألته: «وما أدراك بذلك؟ لو كان الأمر كما تقول... لما كنت فهمت عزفي كما... فهمته أمس.»

فسألها بلهجة أقرب من الخشونة: «وما الذي جعل هذا يحدث؟ هل السبب هو لأننا في روسيا، أم أن ذلك كان سيحدث أيضاً لو كنا في مكان آخر في لندن أو في باريس مثلاً؟»

فخفضت نظراتها ثم قالت: «أظن... عندما تحدث لنا هذه الأمور... كما تحاول أن تقول... فذلك لأننا على استعداد لها، فنحن قد نسمع نفس الموسيقى... وننظر إلى نفس الصورة... أو ربما نرى نفس المنظر الجميل... دون أن يعني ذلك شيئاً... ثم فجأة...»

وسكتت وكأنها لا تستطيع أن تجد الكلمات المناسبة للتعبير عنها، فقال بليك ينهي كلامها: «وفجأة يظهر شيء آخر، رؤيا كنت مقتنعاً بأنها ليست سوى تخيّلات، إلى أن جئت إلى هنا اليوم وتحققت منها.»

لم تجب، فتابع يقول: «ففي اللحظة التي رأيتك فيها، أدركت بأن ذلك كان حقيقياً. وهذا الذي جعلني أسألك عن الذي فعلته بي، وعن الذي جعلني أشعر بذلك؟»

فمنحته ابتسامة خيّل إليه أنها أجمل شيء رآه في حياته، ثم قالت: «ما حدث قد حدث... ولا لزوم للشرح.»

قال: «نعم، ولكنني اشعر بالفضول، هل يحدث هذا أيضاً مع الآخرين؟»

كان في صوته حدة. وسكت ينتظر الجواب، عالماً أنه سيكون من الأهمية التي ينبغي أن يكون عليها بالنسبة لهذا الأمر.

فأجابت: «هذا يحدث مع والدي فقط، فهو يفهم موسيقاه جيداً. نحن الاثنان نشعر بنفس الشعور... ولكن... هذا لا يحدث مع الآخرين.»

فغمر بليك الارتياح، فقد كان خائفاً مما قد تجيب به.

فسألها: «هل نتحدث عن ذلك، أم تعزفين لي؟»

«وما الذي تفضله أنت؟»

قال باسماً: «الاثنين.»

ثم اتكأ على البيانو. فقالت بخجل: «إنني... لا أستطيع أن أفكر في الموسيقى... وأنت موجود.»

فقال بليك بصوته العميق: «وبكلمة أخرى، أنت تفكرين بي.»

«إنك... تريدني... أن أعزف لك.»

«يمكن تأجيل هذا، تعالي واجلسي على الأريكة وحدثيني عن نفسك.»

وبدا مستعداً للابتعاد عن البيانو.

ولكن زويا بقيت لحظة لا تتحرك، ثم قالت ببطء وكأنها تذكرت أمراً لتوّها: «أظن أن... الأميرة ستتضايق إذا علمت بمجيئك إلى هنا... اثناء غيابها.»

فقال: «وهل هذا مهم؟ قد لا تعلم بذلك.»

أجابت: «بل ستعلم لأن الخدم سيخبرونها، فكل شيء ظاهر في روسيا.»

ورأى بليك أن هذا صحيح تماماً، فقد علمت كاتارينا أمس بأنه غادر القصر لزيارة الأميرة.

وحدث نفسه بأن هذا غير مهم، فهو لا يهتم لما قد تقوله الأميرة أو تعتقده.

عند ذلك، تذكر أن الأمر يتعلق بزويا أيضاً، فأدرك، ولأول مرة أنه تصرف بغاية الأنانية، وذلك لأنه أراد رؤيتها مرة أخرى.

فلقد اعتاد بليك التفكير فقط باهتماماته الخاصة، دون أن يعتبر مدى تأثير هذا على الآخرين.

ولأول مرة منذ سنوات طويلة، وجد نفسه يهتم بتأثير تصرفاته على إنسان آخر، وعلى الأخص على فتاة.

فقال: «أظن أن أفضل ما يمكنني القيام به، هو أن أغادر القصر حالاً.»

ونظر إليها ثم تابع يقول: «أريد أن أبقى... أريد ذلك حقاً، فلدي الكثير لأحدثك به، والكثير مما أريدك أن تخبريني عنه، ولكن أخشى أن يسبب لك ذلك ضرراً ما، سأترك معك خبراً للأميرة ثم أرحل.»

فقالت بصوت خافت: «أريدك أن تبقى... أريد... التحدث إليك ولكن من الأصح... أن أطلب منك... الخروج.»

فقال بسرعة: «فلنتخذ حلاً وسطاً، سأبقى فترة بسيطة، ولكن علينا أن لا نضيّع لحظة واحدة من هذا الوقت.»

وأشار إلى الأريكة قائلاً: «هيا، نحاول أن نستفيد من هذه الفرصة إلى أقصى حد.»

فحوّلت نظرها عنه، وسارت نحو الأريكة التي كانت بين عمودين رخاميين، وجلست عليها.

جلس هو الآخر، وأخذ ينظر إلى وجهها متفحصاً، وعندما لم تتكلم، قال: «سمعت الكثير عنك الليلة السابقة. وعلمت انهم يدعونك فتاة الثلج.»

فخفضت بصرها وهي تشعر بالخجل، ثم قالت: «إنه... إسم أحمق... دعاني به رجل أحمق.»

فسألها: «ما الذي يجعلك تقولين ذلك؟»

«لأنني لست في الحقيقة باردة المشاعر عدا بالنسبة إلى... شخص معينّ.»

«أهو بوريس؟»

«نعم، إنه لا يعجبني... ثم إنه حاول تهديد والدي.»

سألها بحدة: «بأيّ شكل؟»

«قال لوالدي انه سيطالب بطرده من روسيا، كما سيوقفه عن العمل هنا إلا... إلا إذا وافقت أنا... على ما يريده مني.»

فقال بليك بغضب: «هذا شيء لا يطاق، ليس لبوريس الحق في التصرف بهذا الشكل الهمجي.»

أجابت زويا: «هذا ما قاله أبي، وقد قال لبوريس بأن ليس له أي حق عليه... ولكنني خائفة.»

«لماذا؟»

«لأن بوريس رجل في غاية العناد، وأشعر بأن في إمكانه أن يكون شريراً عديم الضمير، لا يتورع عن القيام بشيء، عندما يريد.»

«ولكنك هنا في بيترسبورغ ستكونين في أمان.»

أجابت: «أرجو ذلك... فالأميرة... بالغة اللطف والشهامة.»

قال: «إنني واثق من أنها ستحميك بأيّ شكل كان، كما سأكون إلى جانبك إذا واجهت أية مشكلة.»

فقالت بهدوء: «يجب ألا تورط نفسك... في أي شيء قد يجلب لك المشاكل... خاصة مع القيصر... فقد سمعت مبلغ حبه لك... وعليك أن لا تهتم شخصياً... بشؤون روسيا.»

فابتسم بليك وقال: «ولكنك لست روسية تماماً... انك نصف فرنسية.»

قالت: «هذا يجعل الأمر أسوأ. فإن انكلترا في حالة حرب مع فرنسا.»

فقال: «وكذلك روسيا، حالياً.»

«إنني قلقة على والدي في موسكو، فإذا وصل الفرنسيون إليها... فالقتال سيكون فظيعاً.»

فقال ببطء: «إنني واثق في أن الروسيين سيبذلون كل ما في وسعهم لمنع الفرنسيين من الوصول إلى موسكو.»

قالت: «كل هذا... فظيع... ولا ضرورة له، لقد أحببت باريس كثيراً عندما كنت فتاة صغيرة، عندما كنا نعيش هناك... فالذي يحطم قلب والدي هو كل الذين قتلوا لا لسبب سوى لطمع رجل لا يشبع بينما هو ليس حتى فرنسياً... بل كورسيكياً.»

كان بليك يعلم أنها صرخة طالما سمعها من الكثير من الفرنسيين، ولم يكن لديه أي جواب لها، ولكنه قال بدلاً من ذلك: «إنني أعلم بأنني سأورطك في كثير من المتاعب إذا

www.rewity.com

أنا بقيت هنا مدة أطول. ولكنني سأراك مرة أخرى، فإذا وقعت في أيّة مشكلة، فلا تترددي في ابلاغي.»

وسكت برهة، ثم أضاف قائلاً: «عديني بأن تفعلي ذلك.»

فقالت برقة: «أعدك...»

فقال بعد ما نهض: «اهتمي بنفسك.»

ثم غادر الغرفة دون أن ينظر خلفه، بينما وقفت هي تنظر في أثره.

الفصل الرابع

قامت الأميرة سيفولسوف وابنتها تانيا أولاً بزيارة سيدة عجوز من آل سيفولسوف تعيش في قصر اسطوري قديم على ضفاف نهر نيفا.

كانت امرأة طاعنة في السن وقد واجهت في حياتها أحداثاً كثيرة ومتنوعة بحيث ما عادت تهتم بما يحدث حالياً.

كانت، على كل حال، شديدة الاعجاب بالقيصر فهي لا تكاد تتوقف عن الحديث عن شخصيته ومظهره المهيب المسيطر.

وكانت قد تلقت زيارة من مدام دي ستايل الكاتبة الفرنسية التي بالغت في مدح القيصر قائلة بأنها تأثرت من البساطة النبيلة التي يتباحث بها بشؤون أوروبا الكبرى.

وتابعت السيدة العجوز قائلة: «إن الكسندر هو بالضبط نموذج للقيصر الذي كانت روسيا بحاجة إلى امثاله منذ قرون، وسترين أن التاريخ سوف يضعه في المنزلة التي يستحقها.»

ووجدت تانيا هذه الزيارة مملة نوعاً ما، ولكنها أخذت ترضي نفسها بمشاهدة التحف الفنية الجميلة التي تزيّن القصر.

وعندما غادرتا المكان، قالت أمها: «هناك على الأقل

أحد يرضي عن الطريقة التي تحكم بها روسيا. ولكنني أعرف جيداً، بأن مثل هذا المديح للقيصر، هو نادر.»

فأجابت تانيا: «لكنني اعتقد أن كل شخص معجب بالقيصر، يا أمي لما يبدو عليه من قوة في الشخصية في بزته العسكرية.»

فتراجعت الأميرة عما كانت ستتفوّه به من كلمات بشيء من المرارة، وبدلاً من ذلك عادت إلى الحديث عن بليك، قائلة: «عليك أن تظهري له كل الاهتمام، يا تانيا. ابتسمي له، واسأليه عن آرائه، ولكن قبل كل شيء، إياك أن تدخلي السأم إلى نفسه بأحاديث وتعليقات عادية.»

«ماذا تعنين بالتعليقات العادية، يا أمي؟»

فنظرت الأميرة إلى ابنتها، معترفة بينها وبين نفسها بأن تانيا، رغم جمالها البالغ، لا تتمتع بالذكاء والحكمة، بحيث تجذب رجلاً محنكاً مثل بليك.

وكانت زيارتهما التالية إلى قصر الشتاء، حيث سألتا إن كان ممكناً زيارة زوجة القيصر.

كانت زوجة القيصر اليزابيت فيودوروفينا شديدة الاهتمام بالأميرة، فلم يكن مستغرباً أن يأتي الجواب، بأنها ستكون مسرورة لرؤيتها.

وأرشد الخادم الأميرة وابنتها إلى جناح اليزابيت، ومرة أخرى أخذت تانيا تتفرج باعجاب على التحف والقطع الفنية الجميلة التي تزين الغرف.

كانت اليزابيت، تتحدث مع الأميرة بجد تام، فهي الآن، وبسبب الأحداث الأمنية، أكثر سعادة مع القيصر مما كانت عليه في السابق، فهو أصبح ينشد مساندة

زوجته في هذه المحنه. لذلك، منحتها له من كل قلبها.

وقالت لها الأميرة تثني على ثباتها الرائع: «إنك في غاية الشجاعة، يا سيدتي.»

أجابت اليزابيت ببساطة: «إنني أحاول أن أكون كذلك. ولكن كيف لي أن أكشف لك عن مشاعري الدفنية وأنا أرى روسيا الحبيبة، وكأنها طفل غال عليّ ارتمى فريسة المرض.»

وتأوهت بعمق ثم تابعت تقول: «لن تفلت من أيدينا، ولكنها ستتألم وسأشاركها هذا العذاب.»

فضغطت الأميرة على يدها تعاطفاً.

ثم تابعت اليزابيت تتحدث بصوت هادىء عن التمويل لأيتام الحرب، وكيف أنها تدفع للأعمال الخيرية تسعة أعشار مخصصاتها السنوية.

تأخر بهما الوقت حتى بعد العصر، وكانت الأميرة تفكر في أن اليزابيت على وشك أن تعلن عن انتهاء وقت الزيارة عندما انفتح الباب بعنف واندفعت إحدى الوصيفات وقد بان الذعر في وجهها وهي تصرخ: «سيدتي... سيدتي.»

فوقفت زوجة القيصر تسأل وقد بان الخوف على ملامح وجهها: «ماذا جرى؟ هل ثمة سوء؟»

فقالت الوصيفة بصوت متقطع: «يقولون... يا سيدتي ان الفرنسيين قد حوّلوا اتجاههم نحو بيترسبورغ.»

فهتفت اليزابيت: «لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.»

«لقد أخبرني بذلك رئيس الحرس، يا سيدتي، والذي كان قد علم بأن الحكومة تتدبر أمر انقاذ النفائس.»

فصرخت: «لا أصدق هذا. يجب أن أذهب إلى القيصر حالاً.»

خرجت من الغرفة، بينما أخذت الأميرة بيد تانيا ومضت بها قاصدة مدخل القصر. كانت الممرات تمتلىء بأناس يركضون هنا وهناك وقد ارتفعت أصواتهم بكلام لا يفهم.

واصطدمت الأميرة بإحدى الصديقات التي قالت لها: «هذا شيء لا يطاق، من غير المعقول أن نكون مهددين هنا. لا بد أن يوقف أحد هذا العدو قبل أن يصل إلينا.»

فقالت الأميرة تخفف عنها: «إنني واثقة من أن هذا لن يحدث.»

فصرخت صديقتها بشكل هستيري: «سأقطع لساني إذا تكلمت بالفرنسية مرة أخرى. ويجب أن يطرد كل فرنسي وفرنسية من بيترسبورغ في الحال، أو أن ينفى إلى سيبيريا.»

لفظت هذه الكلمات بحقد بالغ، وما لبثت أن جرفها التيار المتدفق من الناس الذين كانوا يركضون ويصرخون بحماس وعنف ضد الفرنسيين وقائدهم نابوليون.

كانت عربة الأميرة في انتظارها، وعندما سارت بهما، قالت تانيا: «هل سيقتلنا الفرنسيون، يا أمي؟»

فقالت الأم بحزم: «إنني واثقة من أن والدك والجيش الروسي سيمنعونهم من الوصول إلى بيترسبورغ.»

وعندما وصلتا إلى قصرهما، بدا كل شيء هادئاً ساكناً بعد ذلك الضجيج والضوضاء في قصر الشتاء. كان من الواضح، أن الخبر لم يصل بعد إلى الخدم، وما لبث رئيس

الخدم أن تقدم يقول: «لقد جاء السيد بليك ويلمنستر إلى هنا بعد ذهابكما، يا سيدتي.»

«هل أخبرته في أي وقت سأعود؟»

«إنه لم يسألني، يا سيدتي، ولكنه تكلم فترة مع الآنسة فالون، ولا بد انها نقلت إليه هذه المعلومات.»

فسألته الأميرة بحدة: «هل تكلم مع الآنسة فالون؟»

«لقد سألني عنها، يا سيدتي، فأخبرته بأنها في غرفة الموسيقى.»

شعرت الأميرة بالغضب، لقد فكرت لعدة مرات في ذلك التصرف الغريب بين بليك وزويا حين وقفا يحدق الواحد منهما في الآخر عندما تعارفا لأول مرة.

إن اهتمام بليك بزويا، يظلم وجهها، ودون أن تقول شيئاً لتانيا، اندفعت تصعد السلم، فتناهى سمعها صوت الموسيقى، علمت بواسطته مكان زويا.

فتحت الباب. ووجدت زويا جالسة إلى البيانو، رافعة نظراتها إلى الأعلى، وكأنها اصبحت في الفضاء، لا تدري بما يدور حولها.

كانت على ملامح وجهها الارتياح، حتى أن الأميرة وجدتها بجمال لم تره فيه من قبل.

صفقت الباب خلفها بعنف، في وجه تانيا التي كانت قد لحقت بوالدتها إلى الطابق الأعلى.

أعاد صوت اقفال الباب زويا إلى الواقع.

توقفت عن العزف ووقفت ببطء بينما تقدمت الأميرة نحوها، وعندما وصلت إلى البيانو قالت لها بحدة: «عرفت أن السيد بليك ويلمنستر كان هنا.»

www.rewity.com

«نعم، يا سيدتي.»

«ومكث هنا بعض الوقت.»

«لم يمكث مدة طويلة، يا سيدتي.»

«كم مكث؟»

أجابت زويا: «لا أعرف بالضبط.»

«إنك تعلمين جيداً، كما أعلم أنا، إن ليس لك الحق في أن تستقبلي أحداً في غيابي. لم أتوقع مثل هذا التصرف من فتاة تقيم في بيتي.»

أجابت زويا: «إنني آسفة يا سيدتي. ولكن السيد بليك دخل إلى الغرفة على نحو مفاجيء، وعندما أدرك أنك غير موجودة في المنزل، تحدث معي قليلاً ثم خرج.»

«ما الذي قاله؟ وعمّ تحدث؟»

سكتت زويا لحظة ثم قالت: «تحدث عن الموسيقى... وعن والدي.»

وحيث انها كانت تجيب على الأسئلة بصراحة وصدق، كان على الأميرة أن تهدأ وترضى، ولكن يبدو أن هذا، ولسبب ما، زاد من غضبها أكثر من الأول.

فالاستياء الذي كانت تشعر به لكسف زويا لابنتها تانيا دون أن تبذل أي جهد واضح في هذا السبيل، كان يغلي في داخلها حتى لم يعد في وسعها أن تتحكم في مشاعرها، فقالت: «إن جنود بلادك متجهون إلى بيترسبورغ لغزوها. وبهذا يهددون حياتنا وكل ما نملكه. فالأفضل أن تعودي إلى والدك لأنني لا اريد ايواء عدوة في بيتي.»

عندما أنهت كلامها، وبعد أن نطقت بالكلمات الأخيرة ببالغ الحدة والاحتقار، قالت زويا بهدوء وكبرياء: «إنني

افهم جيداً ما تعنين، يا سيدتي، وسأرحل حالاً إلى موسكو. لا يسعني سوى أن أشكرك لاستقبالك لي، كما اشكرك أيضاً نيابة عن والدي.»

وانحنت لها احتراماً، وكأنما انتبهت الأميرة فجأة إلى نحول زويا وصغر سنها، فقالت بصوت أقل تهجماً: «سآمر لك بعربة سفر وببعض الخدم الموثوق بهم لمرافقتك والمحافظة على سلامتك.»

«شكراً يا سيدتي.»

وانحنت زويا مرة أخرى، ثم غادرت الغرفة.

* * *

كان بليك عند القيصر عندما سمع بالشائعة التي تقول بأن نابوليون يتجه الآن نحو بيترسبورغ.

وكان القيصر قد قرأ هذا النبأ فشحب وجهه وناول الرسالة إلى بليك دون أن يقول شيئاً.

قرأها بليك، ثم قال: «بصراحة، أنا لا أصدق هذا، يا سيدي.»

فسأله القيصر: «ولِمَ لا؟»

«لو كان هذا صحيحاً، فالمفروض أن تسمعه من الجنرال كوتوزوف نفسه أولاً.»

«أليس هذا النبأ منه؟»

«كلا يا سيدي، لقد أرسله إليك بوفولسكي، والذي على ما أظن، تذكر أنه كان في جناحك الخاص عندما تقابلنا في فيينا.»

فقال القيصر: «نعم، نعم، تذكرت.»

«لقد كنت دوماً اعتبره مولعاً بنشر الأقاويل وتضخيم الأمور. إنني لا أعرف ما المركز الهام الذي يحتله في الجيش الروسي، ولكنني لا أظنه مركزاً رفيعاً.»

فاختطف القيصر الرسالة من يد بليك وأعاد قراءتها. ثم قال بعد ذلك: «أعتقد أنك على حق، ما كان لنا أن نهتم كثيراً بهذا الأمر قبل أن تصلنا معلومات أخرى من الجنرال كوتوزوف نفسه.»

ولسوء الحظ، عندما غادر بليك جناح القيصر وجد أن الرسالة قد قرأها بعض أعضاء الوزارة قبل أن تصل إلى القيصر، بينما كشف الرجل الذي أحضرها عما جاء فيها لكل إنسان قابله.

كان يعلم أن مثل هذه الأشياء لا تحدث مطلقاً في الجيش الانكليزي. ودهش للهستيريا التي انتشرت، ليس في القصر فقط، بل في كل أنحاء المدينة.

وسرعان ما علم أن معظم الأسر الارستقراطية قد أخذوا بحزم ما غلا ثمنه من المتاع في عربات، وغادروا المدينة إلى الأرياف.

لم يبق سوى الفقراء العاجزين، الذين تجمعوا الآن خارج القصر الملكي يحدقون في ذلك الصرح الشامخ وكأنهم يشعرون بأن سلامهم متصل بالقيصر نفسه وهو الذي سينقذهم.

لقد كان بليك واثقاً من أن نابوليون لا يمكن أن يغير اتجاهه بعد أن أصبح قريباً من موسكو إلى درجة كبيرة، ليتحول إلى بيترسبورغ.

أما ما الذي سيقوم به بعد احتلاله لموسكو، فذلك أمر

آخر. ولكن بليك، الذي سبق وكان جندياً هو أيضاً، كان واثقاً من أن بيترسبورغ، من وجهة النظر العسكرية، ليست هدفاً مباشراً.

ولكن، كان من الصعب، على كل حال، أن يجد شخصاً يمكنه حتى التحدث إليه بهذا الشأن، فكيف بأن يوافق على رأيه؟

وأخيراً، تكلم مع السيد كارتكارت، السفير البريطاني الذي أطلعه على أمر لم يكن يعرفه من قبل، وهو أن السيد روبرت ويلسون، والمعروف بلقب الجنرال الانكليزي، يحارب مع الجيش الروسي. كان السيد روبرت قد اكتسب في أوروبا صفة الخبير العسكري في الحرب الروسية بعد أن ألف كتاباً نشر منذ سنتين، فكان موضع دراسة العسكريين المختصين في ذلك الحين، بمن فيهم نابوليون نفسه.

لقد أبلغ السيد كاتكارت بليك، بأن السيد روبرت قد أرسلته الحكومة البريطانية من تركيا إلى الجبهة الروسية وقد وصل إليها في نفس وقت سقوط سمولنسكي.

قال كاتكارت: «وهو معهم الآن، وأنا في الواقع انتظر التقرير منه بكل ما يحدث.»

ابتسم، ثم أضاف: «ستدرك، عند ذاك، أنني أجد تقاريره أكثر صدقاً بكثير من تلك التي أتلقاها من الروسيين، والتي غالباً ما تضلل القيصر.»

فقال بليك: «لقد شعرت بالارتياح كثيراً لما أخبرتني به، فإذا كنت حقاً تتوقع رسالة في وقت من الآن، فأنا أحب أن أبقى منتظراً.»

فأجاب كاتكارت: «سيكون بقاؤك من دواعي سروري.»

وعلى كل حال، لم يصل الرجل الذي ينقل رسالة السيد روبرت ويلسون إلا في وقت متأخر من المساء.

وبقي بليك لتناول العشاء في السفارة، وما أن انتهيا منه، حتى أعلن الخادم أن الرجل قد وصل.

ولم يكن ثمة شك في أن بليك والسفير قد شعرا بالتوتر حين فتح هذا الأخير الرسالة.

قرأها السفير أولاً، ثم تنهد بارتياح واضح وهو يناولها لبليك.

لقد كتب السيد روبرت إليهما، يجزم ويؤكد أن الجنرال كوتوزوف ينوي أن يوقف انسحاب جنوده الذين ما برحوا ينسحبون بانتظام من أمام الفرنسيين المتقدمين، وأنهم سيشتبكون مع الغزاة ما يغني عنهم الوصول إلى موسكو.

لقد كتب قائلاً: «وهذا هو هدف نابوليون. ولا ريب في أنه يجب أن يمنع عن القيام بذلك.»

وهكذا اختتمت الرسالة، والتي كانت موجزة. فنظر بليك إلى السفير باسماً وهو يقول: «لقد كنت واثقاً من أن الذعر الذي اكتسح بيترسبورغ كان لا ضرورة له.»

فقال السفير موافقاً: «كما كنت أنا.»

ونهض واقفاً وهو يقول: «يجب أن آخذ هذه الرسالة إلى القيصر، ولكنني سأكون شاكراً يا سيد بليك لو تتفضل وتخبر أي وزير تريده، بما قد علمناه لتونا.»

فأجاب بليك: «سأفعل ذلك.»

ولكن ذلك لم يكن بالمهمة السهلة. فقد أمضى بليك والسفير، ما يقارب الثلاث ساعات في طمأنة الجميع، كما

انهما تمكنا من منع عدد من ذوي الأهمية من الناس من مغادرة المدينة.

وخلال ذلك، كان التعب يتملك بليك، ولكنه عندما انتهى أخيراً، لجأ إلى غرفته راجياً أن لا تطلب كاتارينا رؤيته.

وكان خادمه قد أخذ منه سترته بالأوسمة التي عليها، وحين وجدها تدخل المكان فجأة.

فقال بسرعة: «هناك رسائل مستعجلة يجب ان اكتبها، يا كاتارينا، وهذا سيشغلني حتى الفجر.»

فقال باسمة: «إذن، فسأكتبها لك. إنك تعلم أنني أتمنى قراءتها.»

فأجاب: «إنها ستكون للأسف، مكتوبة بالشيفرة، ومع أن رجالكم حاولوا فك رموزها إلا أنني لا أظنهم نجحوا في ذلك.»

فقالت: «هذا صحيح. وكل ما أطلبه منك، هو أن تترجمها لي.»

سألها: «أتتصورينني اقترف خيانة كهذه؟ إنني لم أطلب منك مرة أن تريني تقاريرك السرية.»

أجابت: «يمكنك رؤيتها إذا شئت. ولكن أسهل من ذلك بكثير أن أخبرك بها شفهيا.»

فقال بليك بسرعة: «اذهبي إلى غرفتك يا كاتارينا ودعيني في عملي.»

فسألته: «هل يمكن أن تكون فظاً بهذا الشكل؟»

وعندما غادرت كاتارينا بكره منها، وأصبح بمفرده، سار نحو النافذة حيث أزاح ستائرها وأخذ يستنشق الهواء الحار.

عند ذلك، تجاوبت في نفسه تلك الموسيقى التي كانت زويا تعزفها والتي دعاها والدها «ذوبان الثلج.»

وإذ كان يستعيدها في ذاكرته، أخذ يفكر في أنها تمكنت من التأكيد له، بأن النساء ينقسمنّ إلى قسمين، إما جدّيات وإما لسن كذلك.

شعر بنفسه وكأنه فارس يدخل في مبارزة ما.

وبدا له هذا بعيداً عن التصديق، ولكنه كان يعلم أن هذا قد حدث فعلاً.

فالموسيقى التي عزفتها زويا لم يتشبع بها عقله فقط، وإنما ايضاً ذلك الجزء من كيانه الذي لم يتعرف اليه من قبل.

• • •

عندما استيقظ بليك في الصباح التالي، وجد أن القصر عاد إلى طبيعته، وكأن الفوضى والاضطراب بالأمس لم يحدثا قط.

وكان أفراد الحرس يقفون دون حراك، وبليك يمر بينهم متجهاً إلى جناح القيصر، كما أن الناس الذين قابلهم، وأكثرهم من موظفي القصر، كانوا يسيرون متمهلين، ويحنون له باحترام عندما يصادفوه وكأنهم لم يسمعوا من قبل بكلمة الذعر.

كان القيصر بمزاج طيب، وواثقاً من أن الجنرال كوتوزوف، وهو المفضل عنده، سيمنع الفرنسيين من الوصول إلى موسكو.

وعندما استمع إليه بليك، ابتدأت تتكون في ذهنه فكرة، ولكنه لم يكشف عنها.

وعلى كل حال، فقد غادر القصر حالما استطاع أن يجد لنفسه عذراً يقدمه إلى القيصر، ثم انطلق متوجهاً مرة أخرى إلى قصر سيفولسوف.

قد حدث نفسه أنه لمن اللياقة الذهاب إلى الأميرة بنفسه ليخبرها بأن الشائعات المفزعة والتي كانت قد سمعتها بالأمس في القصر، لا أساس لها من الصحة.

انما، الغرض الحقيقي من وراء هذه الزيارة، هو لرؤية زويا فقط.

فقد أوى الليلة الماضية إلى سريره، دون أن يتمكن من كتابة تلك الرسائل، فقضى الليل يفكر بزويا وأمرها.

وحدث نفسه بأنها قد أخذت تشغل منه البال، مما جعله يتساءل مرة أخرى عما إذا كان ذلك من تأثير غموض روسيا وجوها الحار عليه... أم لعل لذلك تفسيراً آخر لا يجروء على مواجهة نفسه به؟

وعند قصر سيفولسوف، شعر بالسرور إذ لم ير في الفناء عربات محملة. وعندما سأل عن الأميرة، قاده الخادم على الفور إلى غرفة الجلوس الخاصة بها.

وعندما أعلن الخادم عن اسمه، وقفت الأميرة التي كانت تجلس إلى المكتب تحرر رسالة.

ثم قالت: «بليك، ما أشد سروري لرؤيتك، وأنا واثقة من أن بإمكانك الإجابة على تساؤلات كثيرة تشغل رأسي.»

فأجاب: «أعتقد انه سبق وعلمت أن حالة الذعر التي سادت المدينة أمس، لم تكن سوى نتيجة شائعة نشرها الكونت بوفولسكي الذي لا يمل أبداً من ترويج مثل هذه الأمور؟»

www.rewity.com

فضحكت الأميرة وقالت: «كان علي الادراك أن فيليكس هو وراء ذلك، ولكن، لحسن الحظ، ابلغني أحد الأصدقاء الليلة الماضية انه قابل السيد كاتكارت، ولا حاجة بنا للخوف.»

قال بليك: «لقد قدّرت ان تكوني أكثر تعقلاً من غيرك.»

فقالت الأميرة باسمة: «سأطلب لك شراباً منعشاً، هل تريد شاياً أم قهوة؟»

أجاب بليك: «بل قهوة من فضلك.»

قرعت الأميرة جرساً ذهبياً، ثم أعطت الأمر بذلك. وانتظر بليك إلى أن غادر الخادم الغرفة، ليسألها: «أرجو أن لا تكون هذه الشائعة قد افرغت زويا، فمن المؤكد أنها تشعر بخوف كبير على مصير والدها في موسكو.»

فقالت الأميرة ببرود: «إن بيار فالون، رجل فرنسي. وبعد ما شعرنا به من خوف الليلة الماضية، قد يمرّ وقتاً طويلاً قبل أن ننسى بأن الفرنسيين هم أشد أعدائنا حقداً.»

فنظر إليها بليك بدهشة ثم قال: «من المؤكد أن ذلك لا يشمل فالون وابنته؟»

أجابت الأميرة: «يؤسفني القول إنه لو صرعت زوجي رصاصة فرنسية، بينما بلادي تعاني الكثير من الحاجة والفقر، أقول عند ذلك، إنني لست بحاجة إلى فرنسي مهما تكن شخصيته.»

دهش بليك، لكن، وبما أن اهتمامه انصرف إلى زويا حالاً، فقد قال بسرعة: «هل يمكنني التحدث إلى ابنة فالون؟ أعتقد انها مكتئبة من موقفك هذا.»

أجابت الأميرة: «ليس ثمة سبب يدفعك لازعاج نفسك، وبعد فهي لا تعني لك شيئاً.»

فأجاب: «لقد كنت معجباً جداً بطريقتها في العزف على البيانو.»

ذكر هذا الأمر عن تعمد، إذ كان يعلم جيداً بأن الخدم أخبروها بأنه كان في غرفة الموسيقى أثناء عزفها.

أجابت الأميرة: «وهذا ما أعتقده أنا ايضاً، ولكنني أرى أن نتحدث في مواضيع أخرى، لأنني لا أنوي، يا بليك، مخاصمتك لأجل فتاة تافهة ليست أكثر من معلمة اللغة الفرنسية لابنتي.»

أجاب بليك: «من المؤكد أننا لن نتخاصم، ولكنني ما زلت أريد التحدث إلى زويا. وأنا على ثقة من أنك لن تمنعيني من ذلك.»

ورأى عيني الأميرة تضيقان للحظة، ثم تقول: «هل أنت مصر إلى هذا الحد؟ إذاً، اسمح لي أن اقول في هذه الحالة، ان أمرك هذا يدهشني. فلم يخطر ببالي قط أنك قد تهتم بفتاة صغيرة، ولكن ما دام الأمر كذلك، لماذا لا تهتم بصغيرتي تانيا؟»

أجاب بليك بنفاد صبر: «لقد سبق وقلت لك ان تانيا تناسب أخي كثيراً، وأعدك أيضاً بأن أقيم لها حفلة في قصري لتقدم إلى المجتمع، وذلك طبعاً حين تحضرينها إلى لندن.»

فشبكت الأميرة يديها بسعادة، رغم معرفتها كم في ذلك من تنازل منها، وقالت له: «ما أروع هذا منك، يا بليك، فأنا أعلم بالضبط ماذا يعني تقديم تانيا إلى المجتمع اللندني.»

وإذ لفظت الكلمات الأخيرة باللغة الفرنسية، رفعت أصابعها إلى شفتيها وهي تقول ضاحكة: «أترى؟ إنني أتكلم الفرنسية بعد أن أقسم كل شخص أمس بأنه لن يتلفظ بأية كلمة فرنسية بعد الآن. ولكن كيف يصف المرء ذلك المجتمع المتألق بغير ذلك خاصة وأنت ذلك الفرد الرفيع الشأن فيه؟»

فقال: «إنك تبالغين بالمديح، يا سونيا، ولكنني ما زلت أريد التحدث إلى زويا.»

تلاقت نظراتهما، وخيل إليه أنها تتحداه. ثم، وبابتسامة فيها شيء من الحقد، قالت: «هذا مستحيل، لسوء الحظ.»

«لماذا؟»

«لأن زويا رحلت إلى موسكو فجر هذا اليوم.»

«أتعنين أنك طردتها؟»

«بل أعدتها إلى والدها.»

«ولماذا؟»

«لأنها فرنسية، ظننت أنها ستكون بأمان هناك حيث أن الكراهية ضد الفرنسيين هنا في ازدياد.»

«هل ظننت حقاً أن موسكو، والتي ستصبح في أية لحظة هدفاً للفرنسيين، أكثر أماناً؟»

كان بليك يتحدث بلهجة لاذعة، فنظرت إليه الأميرة متوجسة قبل أن تقول: «ليس من شأنك، يا بليك، ما قد أقوم به في منزلي ومع من يعمل فيه، أو حتى مع فتاة ليست أقل ولا أكثر من خادمة رفيعة المستوى.»

وإذ رأته يقف، سألته وفي صوتها نبرة ذعر: «هل أنت ذاهب؟»

فأجاب: «نعم، إنني ذاهب. الوداع يا سونيا.»

ومد يده يصافحها، ثم استدار مغادراً الغرفة، فنادته متوسلة: «بليك.»

لكنه كان في هذا الوقت، قد خرج وأقفل الباب خلفه، ولم يبد عليه أنه سمع نداءها.

عاد بليك إلى القصر حيث أعطى الأمر لخادمه بأن يحزم الامتعة في الحال، ثم توجه إلى جناح القيصر.

كان الكسندر مشغولاً مع عدد من رجال الدولة، ولكنه حالما فرغ منهم، أدخل بليك إلى غرفته.

سأله: «ماذا هناك، يا ويلمنستر؟ لدي شعور بأن طلبك لرؤيتي بهذه السرعة، يخفي وراءه شيئاً هاماً.»

فأجاب بليك: «انه امر هام بالفعل لقد قررت، بعدما شاهدت أمس من فوضى واضطراب، أن من مصلحة بلادي، وربما بلادكم، السعي على الفور، بالاتصال بالسيد روبرت ويلسون.»

«هل ستتصل بجيشي؟»

أجاب بليك: «أحب أن أحظى بمقابلة الجنرال كوتوزوف، وأن أتمكن من رؤية ما يحدث بنفسي. فبعد الذي جرى أمس، أرى أننا، نحن الاثنان، علينا توخي الحذر قليلاً إزاء ما يصلنا من التقارير من أي جهة كانت.»

فقال القيصر بحدة: «لقد تسرّعت الحكومة بتصرفها. وقد حدثتهم بذلك بمزيد من الاستياء، كما طلبت منهم، التأكد من الحقائق اكثر في المستقبل.»

فقال بليك: «إنك علي صواب في ذلك، وإذا كنت لا تعتبر ما سأقوله لك، تطاولاً مني، فأنا أحب أن أرسل إليك

www.rewity.com

ملاحظاتي الخاصة بالذي يحدث، بعد الاتصال بكوتوزوف.»

فقال القيصر: «بل أرجوك أن تفعل ذلك. إنك تعلم مقدار ثقتي بك، يا ويلمنستر، كما سأبقى ممتنا لك على الدوام لمساعدتك لنا ليلة أمس.»

ولم يكن ثمة من حاجة للقيصر في أن يعبر عن شعوره بالخجل لأنه وحكومته وقسم كبير من الروسيين كان قد تملكهم الذعر لسبب تافه جداً.

وأسرع بليك بعد أن غادر الجناح الملكي، إلى جناحه الخاص، حيث وجد أن كل شيء قد اصبح جاهزاً للرحيل على الفور.

كتب رسالة سريعة إلى السفارة البريطانية، كما كتب رسالة أخرى لكاترينا يبلغها هي الأخرى بأمر رحيله.

ثم، وكأنه صبي صغير يسرع من المدرسة إلى البيت، هبط السلالم الرخامية، ومنها إلى الخارج حيث كانت احدى العربات بانتظاره، وأخرى لخادمه الخاص، هذا بالاضافة إلى ستة من الفرسان أمرهم القيصر بحراسته.

وما أن ابتعدوا عن القصر، حتى شعر بليك وكأنه ينطلق في رحلة استكشافية.

ليس فقط إلى حيث هناك حرب بين جيشين، وإنما إلى حيث قلبه ومشاعره، وربما الى حيث يكمن مستقبله، وان لم يكن واثقاً من ذلك.

* * *

كانت عربة آل سيفولسوف، والتي يجرها أربعة جياد

سريعة للغاية، وكانت زويا تعلم أن الأمير سيفولسوف، ككثير من غيره من النبلاء، له محطات دائمة لراحة جياده بين موسكو وبيترسبورغ.

واعتقدت أنه بالنسبة لهذه السرعة التي يسافرون فيها، ستكون عند والدها بعد خمسة أو ستة أيام، كما كانت تعلم أنها، ستشعر بالارتياح لوجودها معه في هذه الاثناء.

ومع هذا، فقد يشعر بالغضب منها لعودتها في مثل هذا الوقت العصيب، ليس فقط من ناحية الهجوم الفرنسي، ولكن من ناحية بوريس أيضاً الذي كان قد جعل من حياتها لا تطاق، إلى أن تمكن والدها من اقناعها بمغادرة موسكو.

وحيث أن بوريس لا يسمح له بالدخول إلى منزلها، فقد كان يجلس في الخارج يمنعها من الخروج ويشعرها بوجوده بواسطة سيل من الهدايا والأزهار والرسائل.

لقد رفضت الاتصال به، وكانت ترد إليه هداياه، مهما بلغت قيمتها، مع الخدم دون أن توافق على استلامها.

ولكن ذلك الحصار، جعلها تشعر بالضيق والخوف دائماً من أن يدفعه اليأس إلى الانتقام من والدها.

ذلك لأنه، لم يكن من روسي، مهما كان مركزه رفيعاً يجروء على تحدي شخص بأهمية بوريس.

ولكن، بينما كان بيار فالون يضحك لتهديداته ويستخف بها، كانت زويا ترتجف خوفاً، إذ كانت تعلم بمبلغ عناد وعزيمة الروسيين في المقابلة والاستمرار في ذلك حتى بعد الهزيمة.

وهذا ما كانت تأمله في أن يجده نابوليون اثناء غزوه

لروسيا، ولكنه، ولغاية الآن، كان هو المنتصر بينما كان الروس ينهزمون في كل معركة.

كانت تشعر بأنها منقسمة المشاعر بين قوتين متضاربتين، حيث انها نصف فرنسية ونصف روسية.

ولكنها حدثت نفسه بأن مشاعرها، في مثل هذه الأحوال، تتعاطف مع بلد أمها.

ذلك لأنه ليس للفرنسيين الحق، حسب رأيها، بأن يغزوا بلاداً لم تضرهم بشيء بل، على العكس، كانت حليفة لهم لفترة قصيرة.

وكانت قد علمت بأن القيصر كان قد أرسل رسالة إلى نابوليون في النمسا يقول له فيها ان الوقت لم يفت بعد على إمكانية احراز السلام، إذا سحب الامبراطور جيشه.

ولكن نابوليون أجاب بغطرسة كبيرة: «لا يستطيع أي شخص الآن، من أن يوقف ما ابتدأ.»

وقد سمعت زويا بأن القيصر، حين جاءه جواب نابوليون، قال: «إن أوروبا، على الأقل، ستعلم الآن بأننا لسنا من ابتدأ بهذه المذبحة البشرية.»

ولكن، مهما كان الشخص الذي ابتدأ أو أنهى، فالرجال سيموتون من الجانبين، وبالنسبة إلى زويا كان يؤلمها أن تفكر ليس فقط في الشبان الذين قد تمزقهم القنابل، وإنما أيضاً في الجرحى الذين سيتركون ليموتوا في العذاب، دون أن يكون هناك من يداوي ويعالج جراحهم.

وطالما حدثت نفسها كم في اندلاع الحرب خطأ وشر. ثم تأخذ بالرجاء بأن ينجو كل من تحب من الأذى والقتل.

وكان رجاؤها هذا يشمل بليك بشكل لم تستطع تجنبه.

فقد كانت شعرت، حين تركها، بأنه أخذ معه جزءاً منها.

أرادت أن يبقى، أرادت وهي تعاود العزف، أن تراه وتسمع صوته.

والآن، ها قد افترقا.

وبينما كانت الجياد تبتعد بها في الطرق المؤدية إلى موسكو، شعرت بأنهما لن يلتقيا مرة أخرى، وأنه سرعان ما سينسى أمرها.

سبب لها هذا الشعور عذاباً لا يوصف، ولم تفهم لماذا يحدث كل هذا لها.

لقد دخل حياتها بشكل غير متوقع، لكن حين التقت نظراتهما لأول مرة، شعرت وكأنها كانت تفتش عنه منذ زمن بعيد.

ولم تجرؤ على محاولة فهم ما يحدث لها، كما أن الموسيقى التي كانت تسمعها بكل كيانها، والتي كانت تعبر عنها بأصابعها، تلك الموسيقى اصبح لها فجأة، معنى جديداً.

ولكنها تركته في بيترسبورغ وقد لا يعلم السبب من رحيلها، وربما ستنقضي أيام قبل أن يعلم بذلك.

ولكنها ما لبثت أن فكرت بالأمر من ناحية أخرى، وهو كيف لها أن تعتقد لحظة واحدة أنها قد تكون ذات أهمية في حياة بليك؟

لقد فهمت الآن بالضبط ما كانت تعنيه أمها عندما شرحت لها السبب في زواجها من بيار فالون رغم مركزها الرفيع المستوى في منزل جدها، كونها من أسرة ستروفولسكي، لكن كل ذلك لم يكن يعني شيئاً لها إزاء الحب.

ولكن زويا كانت تعلم أن وضع أمها يختلف تماماً عن وضعها هي. فقد أحبت رجلاً يعتبر أقل منزلة منها، بينما هي، أي زويا، تحب رجلاً متفوقاً عليها من كل النواحي، فهو رجل بريطاني سامي المركز، يمتد بينهما بحر المانش بمسافة قصيرة، لكنها بمثابة المسافة التي تفصل الأرض عن القمر.

فقالت في نفسها، بأن عليها نسيانه، ولكنها كانت تعلم أن هذا أمراً مستحيلاً.

إنها لن تنساه أبداً. وعاد إلى ذهنها ما شعرت به في تلك المناسبات الثلاث التي التقيا فيها، وكيف ستبقى على الدوام، كما سبق ودعاها بفتاة الثلج.

وكانت الجياد تسرع، وتسرع أكثر وكانوا يتوقفون لتناول الطعام من وقت لآخر، من الذي كان الخدم قد أحضروه معهم، وكذلك لتغيير الجياد.

كانوا يسيرون في النهار والليل أيضاً، فقد كان من المستحيل، على زويا، المبيت بمفردها في أي فندق.

والأكثر من ذلك، فقد سمعت بأن تلك الفنادق بالغة في القذارة، كما لا بد أنها حالياً تعجّ بالجنود.

ولذا، كلما أراد مرافقينها الحصول على قسط من الراحة، كانوا يتوقفون لساعة أو نحو ذلك وسرعان ما يستغرقون في النوم.

وبعد ذلك يستيقظون وقد ارتاحوا وأصبحوا على اتم الاستعداد لمواصلة السفر.

واعتادت زويا على تحركات العربة، رغم ما كان في هذا من ازعاج، وكانت تشعر أحياناً وكأنها في طريق لا نهاية

له، بينما قرقعة العجلات تملأ أذنيها بحيث لا تبقى سوى الأفكار لتبعدها عن كل هذه الأمور.

وعندما اتجهوا في طريق بدا لها وكأنه الذي يؤدي لنهاية الرحلة، تناهى إلى سمع الجميع، صوت نيران المدافع.

وكانت قد رأت تنقلات الجنود الروس في أعداد متزايدة، كما أخبرها أحد الخدم المرافقين أن الفلاحين يقولون بأن السبب المتزايد للجنود الروس، هو استعدادهم لهجوم مضاد.

وتساءلت زويا أين عسى أن يتمّ ذلك. وعندما سألت الحوذي الليلة الماضية، حيث توقفوا لتناول الطعام تحت الأشجار، عن مكان الهجوم المضاد، أشار إلى الجنوب قائلاً: «بورودنيو.»

وبما انها سمعت بهذا المكان من قبل، فقد كانت تعلم أنه لا يبعد عن موسكو كثيراً. وأخذت تفكر بارتياح باجتماعها المرتقب مع والدها في اليوم التالي أو ربما الذي بعده.

وأخذت ترجو أن لا تجده قد دفع به الخوف إلى ترك المدينة فتبقى وحيدة من دونه.

ولكنها تبيّنت من رسائله انه في غاية الهدوء وعدم الانزعاج، بحيث لن تصدق أنه قد يهرب، وهو بالتأكيد لا يمكن أن ينتقل إلى أي مكان لا ترافقه فيه فرقته الموسيقية.

والآن، بعدما بزغ الفجر وانطلقوا من جديد، أخذت تسمع أصوات المدافع مرة أخرى آتية من ناحية الجنوب، فأدركت أن المعركة التي كان كل إنسان في بيترسبورغ ينتظرها، قد بدأت.

www.rewity.com

وشعرت زويا وكأنها مهددة، تقريباً من كليّ الجانبين... من الروسيين باعتبارها فرنسية، ومن الفرنسيين باعتبارها روسية.

وأخذت تأمل بالنجاة لنفسها، ثم لم تلبث أن وجدت نفسها تأمل بنجاة بليك ايضاً، بالرغم من أنها لا تدري لماذا قد يكون في خطر، فقد كانت واثقة من أنه الآن في بيترسبورغ.

وأخيراً، بانت مشارف موسكو من بعيد. وحدثت نفسها بأنها في موطنها الآن، فقد كان موطنها في كل بلد يتواجد فيه والدها، رغم أن هذا الموطن لم يعد هو نفسه منذ أن لم تعد أمها فيه.

لقد أرهقتها هذه الرحلة الطويلة، وإذ كانت ما زالت تسمع ضجيج المدافع، رغم بعدها، فقد شعرت بأن الرجال الذين يواجهون نيرانها لا بد أن يكونوا مرهقين هم أيضاً، رغم أن أكثر المتحاربين من الجانبين لا بد وأنهم أمواتاً الآن.

وارتجفت من هذه الأفكار، فهي ترى أنه من القسوة إضاعة أغلى نعمة على الانسان، ألا وهي نعمة الحياة.

وأخيراً، ها هم في موسكو الآن. ورأت الشوارع تزدحم بالمارة، وقد بدا عليهم الاضطراب وهم ينتظرون نتيجة المعركة.

سارت العربة على طول ضفة النهر، واجتازت الكرملين بأبراجه العالية، وبعد أن قطعوا مسافة من الطريق، تحوّلوا صاعدين إلى شارع بدا فيه منزل من الحجر حسن المظهر.

لقد كانت أمها ترفض دوماً السكن في منزل بناؤه من الخشب، ولأن بيار فالون كان يحب زوجته كثيراً لدرجة انه

على استعداد للقيام بكل ما يسعدها، فقد اشترى منزلاً في ساحة هادئة لا يبعد إلا القليل عن وسط المدينة، كانت قد سرت به زوجته كثيراً.

لقد قالت له وقد غمرتها البهجة: «ثمة حديقة أستطيع أن أجلس فيها تحت الأشجار أنا وزويا، وإذا كان الجو دافئاً يمكننا أن نتناول الفطور فيها، إنه إشبه ببيت جميل للدمى وسنكون فيه في منتهى السعادة.»

فقال زوجها: «إنك لا تكبرين أبداً، سأشتري لك بيت دمى كهذا في كل بلد نقيم فيه.»

فألقت عليه زوجته نظرة مفعمة بالحب، ثم قالت بنعومة: «إنني سأكون سعيدة حتى في قبو أو في حجرة فوق السطح، طالما أنت موجود فيه.»

وأصبح بيت الدمى ذاك، كما سمياه، واحة سلام واطمئنان، فكان بيار فالون يهرب إليه من كل شيء، حتى من المعجبين به والذين كانوا يلاحقونه دون كلل أو ملل.

بوريس فقط هو الذي أفسد كل ذلك السلام والهدوء، وكم كانت زويا سعيدة لوجود مثل هذه الحديقة التي كانت تمضي فيها أوقاتها عندما لا تجرؤ على مغادرة المنزل من الباب الأمامي خشية مواجهته.

إنها الآن لا تشعر بالخوف من أن يكون بوريس يترصدها عند الباب. وعندما وقفت العربة، قفزت منها حتى قبل أن يقرع أحد مرافقينها الباب.

وفتحت الباب مدبرة منزل والدها، التي وقفت تنظر إليها بدهشة وهي تهتف: «الآنسة زويا؟»

أجابت زويا: «لقد عدت، يا ماريا. هل والدي هنا؟»

فأجابت ماريا: «إنه في الحديقة.»

أسرعت زويا لتجد والدها جالساً في ظل شجرة وأمامه دفتر النوتة الموسيقية، فأدركت أنه يدون آخر مؤلفاته.

توقفت عن التقدم وأخذت تنظر إليه، متسائلة عما إذا كان هناك رجل يفوقه وسامة وجاذبية.

عندئذ أنبأها قلبها، نعم، هنالك شخص... بعدها هتفت بسعادة أجفل منها بيار فالون، ثم ركضت نحوه.

«والدي، والدي. لقد عدت.»

رأت الدهشة في عينيه، ثم تلقاها بين ذراعيه قائلاً: «زويا، يا أحب الناس، لماذا عدت؟ أي جنون دفعك للعودة في هذا الوقت العصيب؟»

الفصل الخامس

قال جاكس وهو يقدم طعام الغداء لزويا ووالدها: «ان الجنود تغادر المدينة، يا سيدي.»

فأجاب بيار فالون: «لقد غادر المدينة كل شخص تقريباً.»

وعندما رأى زويا تنظر إليه بدهشة، قال موضحاً: «لقد منع الحاكم الناس من المغادرة، توسل إليهم، وأعاد من تمكن من اللحاق بهم وعاقبه، ولكنهم استمروا في الانسلال بعرباتهم التي ملأوها بما استطاعوا من أمتعتهم.»

فقالت: «ولكنني واثقة من أن الجيش الروسي قد أوقف تقدم الفرنسيين. لقد سمعت صوت المدافع عند الفجر تنطلق من مسافة بعيدة، لا بد ان ذلك كان في الساعة السادسة... لا استطيع احتمال التفكير في عدد الرجال الذين قتلوا.»

فأجاب بيار فالون: «ليست هناك حرب دون ضحايا، كل ما بامكاني فعله، هو الرجاء في أن تكون هذه المعركة، المعركة الأخيرة والحاسمة.»

ومع أنه كان يتكلم وكأنما لا يعنيه أي جانب قد يكون المنتصر، إلا ان زويا كانت تعلم أنه ضمناً، كان يعلم أن بني قومه هم المهاجمون.

رأت ان نابوليون قد سبق وحصل على الكثير، فلماذا يطمع بالمزيد؟ لماذا يطمع بالسيطرة على روسيا كما سبق وسيطر على معظم أوروبا؟

«هنالك منشور جديد، يا سيدي.» قال جاكس ذلك وهو يحضر إليه المنشور من على منضدة جانبية، فسأله بيار فالون دون ان يحاول أخذه: «وما يتضمّن؟»

«إنه يعلن أن الجنرال كوتوزوف سيدافع عن موسكو حتى آخر نقطة من دمه.»

فأجاب بيار فالون: «هذا ما يقوم به حالياً.»

قال هذا وهو ينصت، وكذلك زويا، إلى صوت القصف الآتي من البعيد. خيل إليها أن القصف كان اكثر عنفاً مما كان عليه عندما كانت في طريق العودة إلى البيت.

سألت بصوت مرتجف: «هل نحن في أمان... هنا؟»

فأجاب والدها بجفاء: «اعتقد اننا سنكون في أمان أياً كان الجانب المنتصر. ولكنني كنت افضل ان تبقي في بيترسبورغ، يا عزيزتي.»

ولم تخبره زويا بأن الأميرة، في الواقع، هي التي طردتها، وذلك كي لا يؤلمه هذا الأمر.

ولكنها قالت بدلاً عن ذلك: «إذا كان هناك خطر ما، فأنا أريد ان اكون معك، لأنني اعلم ان هذا ما تريده أمي مني.»

فابتسم والدها، ورأت الحزن في عينيه كالعادة كلما فكر في زوجته.

وقف ليسير إلى النافذة حيث أخذ ينظر إلى الحديقة التي غمرتها اشعة الشمس.

ثم قال: «علينا ان نقرر، ما اذا كان من الأفضل ان نبقى هنا أو نغادر.»

فسألته: «اذا غادرنا البيت، فإلى أين سنذهب؟»

فأجاب: «هذه هي المشكلة، فما، رأيك يا جاكس؟»

ولم يكن من غير المعتاد أن يناقش بيار فالون المشاريع مع خادمه، لكن هذا الوضع كان مختلفاً تماماً.

لقد كان جاكس ممثلاً فاشلاً تعرف إلى بيار فالون بالصدفة فكرس حياته لخدمته.

لقد أمضى طفولة معذبة اخذ بعدها يطوف من سيرك إلى آخر، فيقوم بالأعمال الصغيرة التافهة. وبالرغم من أنه قدّم أدواراً صغيرة على خشبة المسرح، إلا أن أحداً لم يهتم به أو فكّر في استخدامه.

أخيراً، وبالصدفة، حيث كان عاطلاً عن العمل، ذهب إلى الأوبرا ورأى بيار فالون يقود فرقته الموسيقية.

ومنذ تلك اللحظة، كما قال لزويا مرة، وجد نفسه وأدرك ان هذا ما كان يفتش عنه طوال حياته، وبقي في خدمتهم عشر سنوات تقريباً، حتى بات يتصوّر الحياة صعبة من دونه.

وعدا عن كل شيء آخر، فقد كان لجاكس موهبة في تعلم اللغات بسرعة، فهو لا يحسن الألمانية فقط بعد أن سبق له وعاش فترة في النمسا، والعربية لأنه كان قد زار مصر، ولكنه ايضاً يحسن الروسية بشكل مدهش.

كان يمكنه ان يمثل أي دور يريده في الحياة العادية افضل بكثير مما يقوم به على المسرح. وكانت زويا تعلم ان أية دولة قد تحتل موسكو، بإمكانه أن يتحدث مع رجالها وكأنه واحد منهم.

ثم قالت زويا بصوت مرتفع: «اعتقد اننا سنجد صعوبة في ايجاد الطعام إذا كانت الحوانيت مقفلة بعد أن غادر اصحابها المدينة.»

فأجاب جاكس: «لقد سبق وخزنت ما فيه الكفاية، يا آنسة.»

ابتسمت، لأنها كانت تعلم أنه، مهما جاع الآخرين، فوالدها لن يجوع، ما دام جاكس موجوداً.

وقال والدها بلهجة متسلطة لم تعهدها زويا منه: «هنالك شيء اريدك ان تفهميه جيداً، وهو انك لن تغادري المنزل أبداً مهما كان السبب.»

فسألته: «اتعني ذلك حقاً يا والدي؟» وكانت تفكر في مبلغ ما كانت عليه من ضيق وقنوط قبل ان تغادر موسكو عندما اضطرها سلوك بوريس إلى البقاء سجينة البيت.

فقال بيار فالون بجزم: «اعني تماماً ما اقوله.»

ونظر إلى جاكس بينما قال ذلك، وكان الرجلان يفكران في أن اي مدينة أفرغت تقريباً من سكانها ستكون موضع جذب عدد كبير من الجنود الروسيين، وليس فقط من الفرنسيين الذين جاؤوا من بلادهم محاربين، قاطعين الأميال الكثيرة.

ودوماً كان النهب احد اهم اسباب الحروب، وكان الرجلان متأكدين من ان الفوضى التي لا ضابط لها، ستشكل خطراً كبيراً على المرأة.

وكرر بيار فالون قوله: «عليك البقاء في البيت.» ثم غادر الغرفة دون ان يضيف شيئاً آخر.

فقال جاكس لزويا: «ان عودتك لم تكن بالأمر الحكيم، يا آنسة، لقد بعثت القلق في نفس والدك، وعندما يشعر بالقلق عادة، لا يمكنه العمل جيداً.»

فنظرت زويا إلى الباب الذي خرج منه والدها، ثم أجابت:

«لقد جئت مرغمة يا جاكس، ولكن لا تخبر والدي، لقد ظن أهالي سانت بيترسبورغ، ان نابوليون قد يتجه نحوهم، وفجأة أصبح كل انسان هناك يكره الفرنسيين، فأرادت الأميرة التخلص مني.»

فهز جاكس كتفيه قائلاً: «انها الحرب، يا آنسة. وفي الحروب يحدث كل شيء.»

كما سبق وفعل والدها، اتجهت زويا إلى النافذة، وخيل إليها انها تسمع قصف المدافع رغم أنه كان بعيداً جداً، فتصوّرت اصوات الانفجارات وصراخ الجرحى، ورائحة الدم والبارود.

لم تكن قد شاهدت أية معركة من قبل، ومع هذا فقد كانت تشعر بالفطنة مدى هولها وعنفها، وتحولت عن النافذة لتتجه إلى الصالون الذي يقع في مقدمة المنزل.

ثم، وبشكل مفاجيء، حيث اصبحت الساعة الرابعة من بعد الظهر، أحست بالسكون يعم الأجواء، فأدركت بأن المعركة قد انتهت.

والآن، تساءلت من قد يكون المنتصر. وتملك زويا شعور بالتوجس يختلف عما كانت قد شعرت به هذا النهار، لكنها لم تستطع أن تعرف سبب اضطرابها وخوفها هذا.

خرجت من الصالون بسرعة بحثا عن جاكس، وعندما وجدته في المطبخ، قالت: «اعلم ان المدافع قد هدأت، وبأن المعركة قد انتهت. فما قولك، يا جاكس ان تخرج وتستعلم عما يحدث؟»

أجابها: «لا بد وأن يعود السيد قريباً.»

فقالت: «ولكنه سيتأخر مع فرقته الموسيقية، ولا استطيع

الانتظار لحين عودته. أرجوك يا جاكس، اذهب واستعلم عن النتيجة.»

فقال: «لا احب مغادرة المنزل في غياب السيد، لكن، ولأجلك يا آنسة، سأرى ما بامكاني معرفته. ضعي المزلاج فوق الباب بعد خروجي، ولا تفتحي لأي شخص كان ما عداي والسيد.»

فقالت: «كلا... كلا بالطبع.»

وشعرت في نفس الوقت، بالغرابة في أن تسمع مثل هذه الإرشادات من جاكس.

ذهبت لتتحدث إلى ماريا، دون أن تطرق بالحديث عن المعركة كي لا تقلقها، ومضت حوالي الساعتين قبل عودة جاكس، وعندما سمعت الطرق على الباب، ركضت إلى السلم، واخذت تختلس النظر من النافذة الجانبية، فرأته يقف في الخارج.

رفعت المزلاج وفتحت له، فدخل إلى الردهة وهو يبتسم، فأدركت قبل ان يتكلم، بأن لديه خبراً مفرحاً.

«ماذا علمت؟ ما الذي حدث؟»

«يقولون انه نصر باهر، يا آنسة.»

«للروسيين؟»

«طبعاً، لقد كانوا دوماً يقولون ان الجنرال كوتوزوف سيوقف زحف نابوليون إلى موسكو.»

فقالت زويا مسرورة: «ليس لنا إذن أن نقلق بعد الآن.» وأسرعت إلى ماريا لتبشرها بذلك، وعندما عاد والدها، لم يكن من السرور والابتهاج كما كانت تتوقع.

قال: «هناك اصابات هائلة العدد، لقد احضر بعض

الجرحى إلى المدينة، بينما لم يعد هنا تقريباً من يعتني بهم.»

فصرخت: «من المؤكد انه لم يغادر الجميع المدينة، يا والدي؟»

فأجاب: «لا يوجد في الشوارع سوى الفقراء ومن ليس لهم بيوت، اتعلمين كم جاء من أعضاء فرقتي للتمرين هذا العصر؟»

فسألته: «كم يا والدي؟»

أجاب: «ستة أشخاص فقط.»

وألقى بأوراق النوتات الموسيقية على المنضدة وهو يقول: «لقد انتهت الفرقة، وما عادوا يريدون العمل معي بعد الآن.»

«آسفة يا والدي.»

ولأنها لمست الألم في صوته، تقدمت نحوه، وهي تقول: «انهم يريدونك دائماً، ان لم يكن في روسيا، ففي بلاد كثيرة غيرها، وانت تعلم ذلك.»

فقال بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه: «لقد كنت منسجماً معهم للغاية. كنت اشعر، لأنهم من بلد أمك، بأن ذلك يبقيني على صلة معها حتى بعد وفاتها.»

فقالت: «اينما كنت يا والدي، فأنا على ثقة من أن ذكرى أمي معك على الدوام.»

نظر إليها بحنان، فأدركت ان هذا ما كان يريد سماعه، ثم وكأنه لم يعد يستطيع احتمال هذا الحديث اكثر، ذهب إلى غرفة عمله الخاصة، واقفل الباب خلفه.

وذهبت زويا إلى جاكس، وقالت له: «اظن يا جاكس أن

www.rewity.com

الوقت قد حان لمغادرة روسيا كي يتمكن والدي من تأسيس فرقة أخرى.»

أجاب جاكس: «انني أوافقك على ذلك، يا آنسة، وعلينا أن نقرر إلى أين يمكننا الذهاب، كما علينا اولاً إقناع والدك بالرحيل.»

فقالت: «هذا صحيح، وهو ليس بالأمر السهل، ولكنني سأتحدث إليه مساء بعد العشاء.»

«قومي بذلك، يا آنسة، وأنا سأعدّ له وجبة لذيذة جداً... من الأنواع التي يحبها.»

وكان جاكس طاهياً ممتازاً، وبيار فالون، كما كل فرنسي، يحب الطعام.

وكانت زويا تعلم أن هذا سيمهد لها الأمر، ولن يبقى عليها سوى محاولة اقناع والدها بأن موهبته ستلقى تقديراً اكبر في مكان آخر، وبعد ذلك يشرعون في التحضير للسفر.

وإذ كانت تفكر في ذلك، وجدت نفسها تتمنى أن ترى بليك قبل الرحيل ولو لمرة واحدة.

وتساءلت عما إذا كان قد علم برحيلها عن بيترسبورغ. لو عاد ليطلب منها أن تعزف له مرة أخرى، فيعلم حينها بأنها رحلت.

وتصورت، حتى دون ان تغمض عينها، وجهه الوسيم، وعينيه الرماديتين وما بدا فيهما من ارتباك وهو يسألها عما حدث له... ولماذا تملكه مثل ذلك الشعور.

وقالت تحدث نفسها بصوت خافت: «إنه يفهم موسيقى والدي.»

وصعدت السلم ببطء مفكرة بما أن العشاء سيكون خاصاً بالنسبة لوالدها، أخذت تختار الثوب الذي سترتديه لهذه المناسبة.

كان والدها يريدها دوماً ان تكون متأنقة، تماماً كما كان يريد من أمها من قبل.

فقد كان له حب الرجل الفرنسي للأناقة والجمال، وعندما دخلت زويا غرفتها، فتحت الخزانة ونظرت إلى أثوابها المعلقة.

لم يكن من بينها تلك الثياب التي كانت ترتديها في بيترسبورغ، لأن ماريا أخذتها لتنظفها من آثار السفر قبل أن تعلقها في الخزانة.

ولكن، كان هناك عدة أثواب جميلة كانت قد تركتها، ومن بينها ثوب كانت تعلم بأنه يعجب والدها.

فقالت في نفسها بأن هذا ما سترتديه، ولم تستطع أن تتجنب التفكير في بليك متسائلة عما إذا كان يجدها جميلة فيما لو شاهدها ترتديه.

وما لبثت أن ضحكت من هذه الفكرة ومن أنه قد يهتم بما ترتديه.

فلقد سمعت ما قالته الأميرة، بأن النساء تحوم حوله، ليس في بيترسبورغ فقط، ولكن في لندن ايضاً، خاصة وانه يتمتع بمركز اجتماعي هام.

وشعرت زويا بمعنوياتها تهبط.

وفكرت في أنه لن يفكر فيها مرة أخرى... وعلى اية حال، ما الذي قد يدعوه للتفكير بها؟

وبعد أربع ساعات تقريباً، كانت زويا قد استعدت للعشاء

الذي كان جاكس قد قال بأنه سيتأخر عن موعده المعتاد نظراً لكثرة الأنواع التي سيعدها.

وكانت قد أوشكت على الانتهاء من تسريح شعرها، عندما سمعت طرقاً قوياً على الباب الأمامي.

اجفلت من هذا، وفكرت على الفور في بوريس، فبهذه الطريقة كان خدمه، والذين كانوا بمثل عجرفة سيدهم، يدقون بها على الباب يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، عندما كانت في موسكو من قبل.

وتساءلت كيف علم بوجودها بهذه السرعة، ولكنها فكرت من ناحية أخرى، في أنه من غير المحتمل ان يكون بوريس ما زال في موسكو في الوقت الذي غادرت فيه كل الأسر النبيلة الأخرى.

وعاد الطرق من جديد، فوقفت زويا، وخرجت لتقف على قمة السلم.

وفي الأسفل، رأت جاكس يخلع مئزره الأبيض وهو يسرع إلى الباب الأمامي، ليفتحه ثم سمعته يتحدث بالروسية إلى شخص ما في الخارج.

لم تتمكن من سماع الحديث من حيث هي، وإذا بجاكس يلتفت لينظر إلى الأعلى وكأنه كان يعلم انها هناك، فصرخ قائلاً: «يا آنسة، تعالي حالاً من فضلك.»

* * *

انطلق بليك بعربة تجرها ستة جياد، بمرافقة مجموعة صغيرة من الجنود لحراسته، وكان اتجاهه نحو موسكو بسرعة فائقة.

ومثل الأمير سيفولسوف وبقية النبلاء، كان القيصر قد جعل لجياده محطات على طول الطريق بين بيترسبورغ وموسكو، ولكن محطاته كانت اكثر تقارباً بين بعضها البعض من محطات الآخرين.

كان هذا يعني ان تغيير الجياد المتكرر، أمكن بليك من إنهاء رحلته بوقت أقل بكثير من أي شخص آخر.

وتذكر ما كان سمعه من أن الامبراطورة كاترين كانت قد وصلت إلى موسكو خلال ثلاثة أيام، ولكن بالنسبة إليها، كانت جيادها تبدل كل ساعة.

كان بليك قوياً يتحمل الأسفار الطويلة، ولهذا لم ينزعج من اهتزاز العربة المتواصل.

كان لا ينفك عن التفكير في زويا والتي كانت تصطدم بأفكاره على الدوام حتى عند وصوله التركيز على الوضع الذي سيجده عندما يصل إلى بورودينو.

وفي الواقع، كانت الساعة عندما وصل إليها، قد تجاوزت الرابعة بعدة دقائق، وكان ضجيج المدافع المدوّي، والذي كان يسمعه أثناء الساعات الأخيرة من سفره، قد توقف الآن.

لقد كان يعلم أن معركة هائلة تدور رحاها، لأنه، وعندما اقترب اكثر، تمكن من أن يرى، في الناحية الجنوبية من الطريق الذي كان سائراً فيه، تلك المعركة من البعيد، وقد تغطت الأرض بجثث القتلى والجرحى من الجنود.

كان المشهد مفزعاً إلى حد صعب عليه ان يصدق أنه حقيقة.

وعندما ترجل من عربته، رأى عدداً من الضباط

مجتمعين على مرتفع فوق الطريق، بينما على الطريق نفسها وجد عشرات الألوف من الجثث وبينهم الجرحى الذين استبدت بملامحهم امارات الرعب وهم يكافحون في الابتعاد عن رفاقهم القتلى.

ولحسن الحظ، وجد بليك الجنرال كوتوزوف يقف مع الضباط، وعلى الفور قدم نفسه إليه.

كان الجنرال يتكلم بهدوء ودون غرور أو غطرسة ولكن، ليس من شك في أنه كان مقتنعاً بأنه هو من أنجز هذا النصر المرموق.

انتظر بليك إلى أن انتهى الجنرال من املاء الرسالة إلى القيصر، ثم سلمها إلى ضابط شاب كان ينتظر لينقلها إلى بيترسبورغ.

كان بليك يعلم جيداً انهم سيتلقونها هناك بسعادة لا توصف، وبالألعاب النارية، وبالفوانيس التي ستصف على طول ضفاف نهر نيفا، كما كل مركب في المرفأ سيكون مضاءً ورافعاً الاعلام.

كان واثقاً من أن كوتوزوف سيكافأ بلقب الإمارة، وبمبلغ مالي ضخم.

كما فكر أيضاً، وبارتياح، بأن زويا ستكون الآن بأمان في موسكو، وإذا لم يبقَ وقتاً طويلاً مع الجنرال، فستكون له فرصة رؤيتها هذه الليلة.

كان يسعده أن يكون الشخص الذي سينقل لها لوالدها، بأنهما ومنزلهما في أمان الآن.

وهكذا، هنأ الجنرال كوتوزوف وضباطه، ثم ذهب للبحث عن السيد روبرت ويلسون.

ولم يكن هذا بعيداً، واستقبل بليك بسرور واضح.

قال له: «لقد علمت بأنك في بيترسبورغ، وقد كنت اتساءل متى سأراك في الجبهة.»

أجاب بليك باسماً: «يبدو أنني وصلت متأخراً بحيث لن اكون ذا فائدة.»

ولكن السيد روبرت كان جاداً حين قال: «أرجو أن لا يكون الجنرال كوتوزوف قد أرسل إلى القيصر من يدعي بأنه انجز نصراً ساحقاً.»

فأجاب بليك: «هذا ما فعله بالضبط.»

قطّب السيد روبرت جبينه، فسأله بليك: «أتراك تخبرني بأن ادعاءه سابق لأوانه؟»

«اعتقد ذلك.»

«لماذا؟»

«لأن ثمن هذا الانتصار، لا يصدق.»

فبدا الجد على ملامح بليك، وسأله: «ما هو حجم الخسارة؟»

أجاب: «من المستحيل في الوقت الحاضر، معرفة عدد الرجال الذين قتلوا. ولكن بإمكاننا أن نخمن، مع التحفظ، أن الجيش الروسي فقد أربعين ألف رجلاً.»

فشهق بليك وهو يقول: «هذا مستحيل.»

فقال السيد روبرت: «أرجو أن أكون مخطئاً في تقديري، ليس عليك سوى ان تنظر إلى ساحة المعركة لترى مقدار الدمار والخسائر امامك، ثم ان المدافع استمرت في اطلاق نيرانها منذ الساعة السادسة من هذا الصباح.»

فقال بليك: «هذا يعني عشر ساعات.»

www.rewity.com

«بالضبط.»

«وماذا كانت خسائر الفرنسيين؟»

أجاب السيد روبرت: «هذا ما لا نعرفه، ولكنها خسارة جسيمة أيضاً، جسيمة جداً.»

كان واضحاً أن السيد روبرت ليس لديه اكثر من ذلك ليخبره به.

فعاد بليك إلى حيث كانت عربته بانتظاره وسط بعض من الجنود اخذوا بالتجمع، والجرحى على النقّالات، بينما الجياد استعملت لنقل المدافع.

كان بليك على وشك الصعود إلى عربته ليأمر الحوذي بالتوجه إلى موسكو، عندما رأى عربة أخرى تقترب منهم، فتميّز بذة الحوذي الذي كان يجلس فيها.

وعندما اقتربت العربة أكثر، علم بأنه لم يكن مخطئاً... لقد كانت عربة الأمير سيفولسوف، التي كانت قد نقلت زويا إلى موسكو.

فمشى باتجاه العربة، وإذ رفع يده يشير إلى الحوذي، أوقف هذا الجياد.

وعندما عرفه الخادم الذي كان يجلس قرب الحوذي، قفز إلى الأرض كما فعل رجل آخر كان مع المرافقين.

وجها التحية لبليك باحترام، فسألهما: «اعتقد انكما من نقل الآنسة زويا إلى منزل والدها في موسكو، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح، يا سيدي.»

فسألهما: «هل تمداني بالعنوان؟»

كان الرجلان على وشك الاجابة، عندما ارغمهما على التحول جانباً، مرور جوادين يجران مدفعاً.

كان هناك بعض الجنود حول المدفع، يلقون الأوامر، فوجدهم بليك وقد غمرتهم الأوساخ، وهم في حالة شديدة من الارهاق.

انغرزت العجلات في الأرض، وقبل أن تتمكن الجياد من التقدم من جديد، جاء ضابط ليقول: «ما الذي تفعلونه؟ إلى أين تذهبون بالمدفع؟»

فأجاب احد الجنود: «لقد جاءنا أمر بنقله، يا سيدي، لأن ثمة قذيفة ملتصقة في الماسورة ولا يمكن اطلاقها.»

فقال الضابط بلهجة عدائية: «ما الذي تعنيه بقولك لا يمكن اطلاقها؟»

«انها ملتصقة، يا سيدي.»

«اطلقوها إذن، لا يمكننا ان نسمح بنقل المدافع من اماكنها، إذ قد يعود الفرنسيون إلى مهاجمتنا.»

فنظر بليك إلى بحر من الجثث بين خطوط الروسيين الحالي وخطوط الفرنسيين الذي بدا في الأفق، فرأى ان ما يقوله الضابط بعيد الاحتمال، ولكن الضابط استمر يقول بغطرسة غاضبة: «اطلقوا القذيفة الآن، اطلقوها باتجاه العدو، فإذا قتل بعض أولئك الغزاة الأوغاد، فسيكون ذلك افضل.»

أخذ احد الرجال يضغط بقوة يحاول اطلاق القذيفة من المدفع وهو يقول: «لقد سبق وحاولنا ذلك اكثر من عشر مرات يا سيدي، ولكنها لم تنطلق.»

فقال الضابط بحدة: «حاولوا ذلك مرة أخرى إذن.»

وكان الإنفجار الهائل، ورأى بليك الذي كان يراقب ما يحدث، وكأن العالم بأجمعه يشتعل باللهب...

* * *

وصلت زويا إلى الباب الأمامي، لتجد اثنين من الخدم الذين احضروها إلى موسكو، يقفان في الخارج.

دهشت واعتقدت انهما في طريق العودة إلى بيترسبورغ. وعلى كل حال، ابتسمت لهما وقالت: «مساء الخير، هل من سوء؟»

فقال احدهما بفرنسية مهشمة: «كل ما في الأمر اننا لا نعرف ما علينا فعله بالسيد، يا آنسة.»

لم تفهم زويا، فقال جاكس موضحاً: «انه يقول، يا آنسة، ان السيد كان قد اخبرهم بأنه قادم لزيارتك، عندما انفجر المدفع بالصدفة، قتل ثلاثة جنود، وواحد من خدم السيد، وكذلك جواده وخادمه الخاص، أما السيد نفسه فقد أصيب بجراح بليغة.» فشعرت زويا بانقباض بالغ، ولم تستطع التنفس.

سألت: «ومن هو السيد؟» ولكنها كانت تعرف الجواب.

أسرعت بالخروج إلى الرصيف، ووجدت جانب العربة مهشما بفعل الانفجار، وبشكل سيء جداً، وإذ كان الباب مفتوحاً نظرت إلى الداخل، رأت بليك ممدداً في المقعد الخلفي، وقد غطته الدماء.

قال أحد الخدم معتذراً: «ان منزل السيد في موسكو مقفل وقد تركه كل من كان فيه، ولا نعرف مكاناً آخر نأخذه إليه.»

فقالت زويا: «لقد اصبتم في إحضاره إلى هنا.»

والتفتت نحو جاكس قائلة: «قل لهم ان ينقلوه بحذر... بحذر شديد.»

وبعد أن نقله الرجال ووضعوه على السرير في الغرفة الوحيدة الخالية من ذلك البيت الصغير، نظرت زويا إلى ماريا وهي تسألها بخوف: «اترينه... ميتاً؟»

ولم يكن سؤالها هذا غريباً، فقد علت ملامح وجه بليك شحوب الأموات، وعينيه مغمضتين.

فأجابت ماريا مؤكدة: «لم يمت بعد، يا آنسة، وسنحاول ما في وسعنا على ابقائه حيّاً.»

وسرعان ما استلمت ماريا زمام الأمور، كعادة المرأة الفرنسية عندما تواجهها المصاعب، واكتشفت في الحال انه غير ميؤوس منه، طالما باستطاعتها القيام بشيء في هذا السبيل.

اعطيت الأوامر لخدم الأمير سيفولسوف بإحضار الطبيب، وقد منحهم جاكس عدة عناوين لعدة اطباء، في حال أن الأطباء كغيرهم غادروا موسكو.

وذهبت زويا إلى المطبخ لتسخين الماء، بينما أخذ جاكس. بنزع قميص بليك لتقييم مدى جراحه.

وعندما دخلت زويا بإبريق الماء الساخن والوعاء وبعض المناشف، كان بليك قد أصبح بين الملاءات، فخيل اليها أنه اكثر شحوباً مما كان عليه.

حضر والدها في تلك الاثناء، وكان تقبله الهادىء للوضع، اكثر مواساة من أي كلام قد يقوله.

قال: «يجب أن يحضر أي طبيب في الحال، لم يغادروا جميعاً موسكو... كما اعرف ان الجرحى، نقلوا إلى المنازل

التي هرب منها اصحابها.» وما أن قال ذلك، حتى تعالى طرق على الباب.

* * *

عندما جلست زويا ووالدها إلى مائدة العشاء امام طعام لا يعد شهياً، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، فهما لم يفكرا في تناول الطعام بينما كان الكثير للقيام به لأجل بليك.

سألها والدها: «هل تعرفت إلى بليك في بيترسبورغ؟»

«نعم، لقد جاء لزيارة الأميرة أثناء عزفنا على البيانو، تانيا وأنا، وذلك على خشبة المسرح الصغير.»

فنظر بيار فالون إلى ابنته، لقد كانا يفهمان بعضهما جيداً، بحيث لا يخفى عليه ما قد يرتسم على ملامح وجهها من مشاعر، وعلى وجه الأخص تلك التي شاهدها وهي تنظر إلى بليك، وما اثبتته النبرة الآن في صوتها وهي تتحدث عنه.

فسألها بهدوء: «هل بينكما أية مودة متبادلة؟»

«لقد كان الأمر... غريباً جداً، يا والدي، ولكن في اللحظة التي... قابلته فيها، أدركت أنه يختلف... عن كل الرجال الذين عرفتهم من قبل.»

«من أية ناحية؟»

«من ناحية أنه يفهم موسيقاك، وعندما عزفت له، رأى... ما كنا رأيناه.»

ولم يكن ثمة حاجة بها لقول المزيد. فقد فهم بيار فالون الكثير ما لم تعبر عنه بالكلمات.

فسألها: «هل أنت واثقة من ذلك؟»

«واثقة تماماً، تماماً، يا والدي، انك تعلم أنني لا اخطىء في شيء كهذا، هذا إلى أنه، في اليوم التالي حين جاء ووجدني بمفردي، سألني عما فعلته به... لقد قال انه... لم يشعر بشيء كهذا... طوال حياته.»

فتمتم بيار فالون يقول: «هذا شيء غير عادي.»

«اتعني ما شعر به؟»

فأجاب والدها: «بل أن يشعر السيد بليك ويلمنستر بهذا. لقد تعرفت إليه عندما كنت في لندن كما قابلته مرة أخرى في فيينا، ومما سمعته عنه، لا اتصور لحظة واحدة أنه من الممكن أن يكون كما وصفته.»

فابتسمت زويا وقالت: «انك تعلم انني لا يمكن ان اخطىء... يا والدي، ولا أحد... لا أحد سواك... من بامكانه ان يفهمني.»

بقي بيار فالون صامتاً للحظات قليلة، ثم قال: «تعلمين يا عزيزتي انني لا اشك أبداً في أي شيء قد تقولينه لي، ولا اتدخل بصداقاتك، عندما لا تدفعني الضرورة لذلك، ولكن لو كانت امك ما زالت حية، فأنا واثق من انها كانت ستوضح لك بأن بليك ويلمنستر لا يمكن أن يعني لك شيئاً في حياتك.»

«لقد فكرت... في هذا، يا والدي.»

فقال والدها ببطء: «من الأفضل ان أرتب غداً أمر نقله إلى المستشفى. حيث يتعالج ويتلقى فيه كل عناية، ربما بشكل افضل مما قد نوفره له هنا.»

سكتت زويا لحظة، ثم قالت: «انني اشعر يا والدي، من ناحية أخرى، بأنني المسؤولة عما اصابه. لقد قال خدمه

بأنه كان يسأل عن عنوان سكني عندما انفجر المدفع.»

فلم يجب والدها، ولكنها كانت تشعر جيداً بأن بليك لا يملك الحق في اقحام نفسه على حياتهما الخاصة، ولا الحق في أن يلاحق فتاة ليست من طبقته.

وما لبثت ان تخلت زويا عن تظاهرها بتناول الطعام، وشبكت يديها معاً وهي تقول بصوت خافت: «عندما احببت أمي، هل كنت تملك أي خيار آخر...؟»

فنظر بيار فالون إلى ابنته وقد بان الذعر واضحاً في ملامح وجهه وهو يسألها: «اتريدين القول انك تحبين هذا الرجل؟»

«نعم، يا والدي.»

«ولكن كيف يمكنك ان تكوني واثقة إلى هذا الحد؟ لقد رأيته مرتين فقط، وربما ثلاثة.»

فتألق وجه زويا بابتسامة، وهي تقول: «في الحقيقة، يا والدي، كيف تلقي عليّ، انت بالذات، سؤالاً كهذا، ثم تتوقع مني الاجابة؟»

فقال: «كان الأمر مختلفا بالنسبة إليّ.»

سألته: «اصحيح هذا؟ لقد كانت اخبرتني أمي بأنها احبتك من أول نظرة، كما وجدت أن الأمر كان مماثلاً بالنسبة إليك.»

فقال: «وكيف كان بإمكاني تجنب ذلك؟ فقد كانت بالغة من الجمال والذكاء أيضاً، وانت يا ابنتي تماثلينها في ذلك.»

فقالت: «هذا بالنسبة إلى لون العينين وإلى ملامح الوجه فقط، ذلك لأن لي لون شعرك، ولكن في... مشاعري...»

واطلقت ضحكة قصيرة تلقائية جعلت أباها يبتسم هو أيضاً، ثم سألته: «ألست ابنتك؟ انني أرى ما تراه حين تعزف، وأسمع ما تسمعه، كما أحاول ان اعبر عن نفسي في الموسيقى كما تفعل، ولكنني في الوقت نفسه، ابنة أمي أيضاً.»

ورقّ صوتها وهي تتابع قائلة: «ان قلبي، كما تعلم يا والدي، لم يمس حتى هذه اللحظة، وهذا هو السبب في أن بوريس، وكثيرين غيره، يسمونني فتاة الثلج، ولكن منذ اللحظة التي نظرت في عيني بليك ويلمنستر، ذاب ذاك الثلج واحببت.»

فسألها: «اتدركين ان هذا الحب قد لا تكون نهايته سعيدة؟»

كان صوته ينضح بالألم، وكأنه لا يستطيع التفكير في ما قد تتعرض له من عذاب.

أجابت: «أعرف ذلك، ولكن هذا لا يمنعني من الاستمرار في حبه، رغم انني واثقة من أنه لن يحبني أبداً بقدر ما أحبه.»

«سأرتب أمر نقله إلى المستشفى.»

«كلا يا والدي.»

فقال: «في هذا الشأن، عليك الامتثال لما قد أقوله، فأنا لا أريد ان اسبّب لك أي ألم، ولا أريد سوى سعادتك فقط، وبقائه هنا، هو الجنون بعينه، ولا استطيع أن اتصور إلى أين قد يؤدي هذا الجنون.»

وأدركت زويا أن ما يعنيه والدها بكلامه هذا، هو أن ما سيقدمه بليك إليها لن يكون الزواج.

فتنهدت بعمق، ثم قالت بهدوء: «إنني اعلم بأنك تفكر بي، يا والدي، ولكن طبيعتي الانسانية تدفعني إلى العناية ببليك إلى أن تعود إليه صحته.»

فرد عليها بحدة: «وطبيعتي الانسانية أيضاً تدفعني إلى حمايتك وإلى منعك من أن تسببي لنفسك الشقاء في النهاية اكثر مما ستكونين عليه عند وداعه، والآن، فكري في ان كل ما حدث لم يكن سوى حلم، تصورات اسعدتك فترة قصيرة من الزمن، تماماً كما تصوّره لك الموسيقى.»

وسكت لحظة، تابع بعدها يقول: «اذا أنت توقفت عن رؤية بليك، وإذا نحن تركناه هنا في موسكو كما أنوي ان افعل، عند ذلك ستختفي تلك الصورة التي صوّرها لها عقلك بالنسبة اليه.»

ونظر إليها لحظة، ثم عاد يقول: «الموسيقى التي عزفتها له، ستعيد تلك الصورة إلى ذهنك، وستشعرين على الدوام بحنين خاص إلى تلك اللحظة التي تعرفت فيها على الحب الأول... ولكن سيدخل حياتك شخصيات أخرى، ولحظات أخرى... أؤكد لك ذلك.»

فسألته: «وكيف يمكنك ان تكون بهذا التأكيد؟ لو رفضت أمي الزواج منك، هل كنت ستنساها؟»

وأدركت وهي تنظر إلى وجه والدها بأنه يريد أن يكذب، ولكنه لم يستطع.

فعادت تسأله: «وهل كان حبك لأمي يختلف عما اشعر به تجاه بليك؟»

وإذ لم يجب، تابعت تقول: «لقد علمتني، يا والدي، ان احلل افكاري، كما علمتني أيضاً التمييز بين الحقيقي

والزائف منها، وأنا اعلم ان ما اشعر به الآن ليس مجرد عواطف مراهقة اعتدت ان اشعر بها احياناً، وذلك منذ سنوات، بل أمر حقيقي كالتنفس، والسمع، والبصر.»

وتنهدت، ثم تابعت تقول: «إذا لم يتحدث إليّ بليك مرة أخرى، وإذا حُكم عليّ ان لا أراه بعد الآن، كما تريدني ان افعل، فسأبقى على حبه، وأنا واثقة تماماً من أنني لن احب احداً سواه في حياتي، كما أحببته.»

وساد سكون مثقل بالمعاني، قطعه بعد ذلك والدها ليقول: «لا أدري ما أقول لك، يا عزيزتي.»

«هل من الممكن، إذن، أن ندع الأمور على حالها، ونعتني ببليك إلى ان يتماثل إلى الشفاء؟ وعند ذلك سنواجه الحقيقة التي تفرض عليّ الخروج من حياته، كما أنني اتوقع، في النهاية، بأنه هو أيضاً يريد الخروج من حياتي.»

فقال بيار فالون: «ما زلت أفضل البحث عن مستشفى لأجله. أعدك بألا افعل شيئاً دون استشارتك أولاً، ولكن لديّ شعور بأن بليك قد يبقى مريضاً لفترة أطول من التي عازم على البقاء فيها في موسكو.»

«وهل تنوي الرحيل عنها بهذه السرعة؟»

أجاب: «أريد أن أرحل، إذ بعد المذبحة التي حدثت اليوم في ساحة المعركة، سأشعر بالضيق والإرتباك في مواجهة الناس كوني فرنسياً.»

ولكن زويا ادركت بأن هذا لم يكن السبب الوحيد. كونه فرنسياً لم يكن بالأمر الذي يقلقه من قبل. ولكن، لأنه يشعر بخيبة أمل وبجرح شديد المرارة في كرامته بعد أن تخلّت

www.rewity.com

عنه فرقته دون انذار مسبق، تخلت عنه في نفس لحظة النصر.

بإمكانها ان تتفهّم ما شعروا في ساعات الخوف ورغبتهم في الهرب مع زوجاتهم وأولادهم إلى خارج تلك المدينة المعرضة لغزو الفرنسيين.

حدثت نفسها بأنهم من المؤكد سيعودون، وإذا هم اعتذروا لوالدها، فسيسامحهم لأنه من النوع الذي لا يمكنه أن يحقد على الآخرين.

ولكنها كانت تدرك نوع شعوره حين يهجره أولئك الذين وضع ثقته فيهم، حتى ولو قالوا بأنه لا يعدو ان يكون رجلاً فرنسياً، فلماذا اذاً يخاطرون بأنفسهم لأجله؟

انتهيا من تناول طعام العشاء، فصعدت زويا، دون أن تقدّم أي عذر، إلى الطابق الأعلى لرؤية بليك.

كانت ماريا معه، وعندما ظهرت زويا عند الباب، تركت الغرفة وخرجت إلى الممر.

فسألتها زويا: «كيف حاله؟»

«من الصعب تحديد ذلك، يا آنسة، ان الطبيب سيعود غداً آملاً ان يتمكن من ان يحضر معه من هو اكثر خبرة منه في مثل هذه الأمور، هذا إذا ما كان يوجد أمثاله في موسكو.»

«هل قال الطبيب ذلك؟»

«لقد قال بأن الناس يغادرون المدينة كل يوم وكل ساعة، هذا بالاضافة، انه بات من الصعب الحصول على التموين وكذلك على الأدوية.»

فقالت زويا حانقة: «لا افهم كيف بامكانهم ان يكونوا بمثل هذا الجبن.»

فوضعت ماريا يدها على ذراعها تخفف عنها وتقول: «لا تقلقي، يا آنسة، سنعتني بالسيد بأي شكل كان، انه رجل قوي البنية، وهذا ما سيساعده على استعادة صحته اكثر من أي شيء آخر.»

فنظرت زويا إلى وجه المرأة متفحصة، ثم سألتها: «هل تعنين بهذا ان حياته في خطر؟»

ترددت المرأة لحظة ثم قالت بصراحة: «إن حالته سيئة، يا آنسة، ولكن ليس إلى الحد الذي لا يمكننا معه إنقاذه بالمعالجة المتواصلة.»

وأضافت بسرعة، عندما رأت ما بدا على وجه زويا: «والآن، لا اريدك ان تكتئبي، فحرارته سترتفع، وهذا أمر لا شك فيه، ولا يمكننا القيام بأي عمل شيء من هذا الخصوص، ولكنني وجاكس، سنعتني به جيداً، ويمكنك ان تثقي بنا.»

فقالت زويا بسرعة: «يجب أن تدعيني اساعد في ذلك، أنا أيضاً، قد لا أكون بمثل خبرتك، يا ماريا، ولكنني أعلم انه بإمكاني مساعدته.»

ولم تنتظر الجواب من ماريا، وإنما تجاوزتها ودخلت إلى الغرفة.

كان بليك على السرير دون حراك، ومرة أخرى اعتقدت زويا، وقد شعرت بانقباض، أنه قد يكون... ميتاً.

كانت رؤيتها له هادئاً، دون حياة، بهذا الشكل، مثل رؤيتها لشجرة سنديان سقطت على الأرض.

وأخذت بالرجاء في أن تعود إليه الصحة والعافية. وان يكتب له طول العمر.

صدر هذا الرجاء من أعماق نفسها، وقد استنزف كل حاسة فيها.

ثم قالت لبليك بصوت مرتفع: «انني أحبك... فكر بي... عد إليّ... فأنا لك... وأريدك... حياً.»

وطبعاً، لم يصدر عن بليك أي تجاوب. ولكنها شعرت بأنها، وبطريقة ما لم تستطع تفسيرها، قد تمكنت من توصل إليه شيئاً، كما استطاعت، بشكل ما، الاتصال به، بالرغم من حالة الاغماء التي هو عليها.

الفصل السادس

«رائحة الحريق تزداد سوءاً.»

قال بليك هذا بصوت خافت. ومن أول كلمة تلفظ بها، نهضت زويا عن الكرسي الذي كانت تجلس عليه وتقدمت لتقف بجانب سريره وتقول: «ظننتك نائماً.»

فرفع نظره إليها، وقال: «إنك لم تجيبي على سؤالي. هل الرائحة أسوأ مما كانت عليه.»

أجابت: «أظن أن البيوت الخشبية في... الشارع المجاور تحترق.»

فقال بليك: «لقد سبق وقلت لك إن عليكما، أنت ووالدك، مغادرة موسكو حالاً. إنني واثق من أن الطبيب سيجد لي مكاناً أذهب إليه، فلا يجب أن أبقيكما هنا أكثر من ذلك.»

كان يتكلم بجد واضح، ولهجته كانت حازمة، فابتسمت زويا وقالت: «أتظن أن بإمكاننا أن... نتخلى عنك... أو أن نسلمك... بصفة سجين... إلى الفرنسيين؟»

فقال بليك: «يجب أن يكون ذلك، وعندما يأتي الطبيب سأطلب منه أن يجد لي مكاناً آخر.»

لم تجب زويا، كانت تفكر في الخمسة وعشرين ألف جريح من الجيش الروسي الذين أحضروا إلى موسكو بعد المعركة.

لقد كانت الحكومة قد أعلنت على الفور، أن موسكو ليست

www.rewity.com

بالمكان المناسب لهم في، لأنه لم يكن ثمة من يعتني بهم، فأرسلوا إلى مدن أخرى.

وعندما صدرت الأوامر بذلك، لم يجدوا العربات الكافية لنقلهم. ورغم أن بعضهم تمّ نقلهم، إلا أن عشرة آلاف منهم بقوا في موسكو قبل أن يأتي الفرنسيون بجرحاهم.

حتى الآن، ما زال من الصعب على زويا، أو أي شخص آخر، أن يصدق في أن موسكو، مدينة روسيا الكبيرة، قد أخليت دون اطلاق رصاصة واحدة في الدفاع عنها.

فقد وصل الفرنسيون ليجدوا المدينة خالية تقريباً من السكان، وقد علم بيار فالون أن نابوليون قد صعق عندما وجد الشوارع خالية والبيوت والحوانيت مهجورة.

لم يبق هناك سوى المسنين والفقراء الذين لا يملكون وسائل النقل، وقد ازدحموا في المعابد طلباً للنجاة.

وبعد دخول الفرنسيين، أخذ الجنود، وقد فقدوا الانضباط تماماً، في النهب والسرقة.

واشتعلت بعدها النيران في البيوت الخشبية، ولكن لم يعلم أحد ما إذا كان ذلك قد حصل صدفة، أم أنه عمل مقصود من جانب الروسيين.

وكانت زويا قد علمت من جاكس أن قسماً كبيراً من المدينة قد أصبح خراباً وأن النيران قد زاد اشتعالها لأن الروسيين، عند مغادرتهم، قد أخذوا معهم معدات إطفاء الحرائق.

وأثناء الليل، حيث كان كل شيء هادىء، كانت زويا تقف عند نافذتها المفتوحة وقد سمعت من البعيد، صوت انهيار الجدران وصيحات الجنود الوجلة من الذي يحدث.

وأثناء النهار لم يكن هناك من مفر من رائحة الدخان أو من منظره الأسود الكثيف وهو يرتفع فوق السطوح.

كانت تعلم أن والدها يخاف مما قد يحدث لهم، وكانت الأخبار التي يحملها جاكس من وسط المدينة حيث كان الفرنسيون يقيمون مركزاً لهم، تزيد في الاكتئاب وهبوط العزيمة.

وكان بيار فالون يكرّر على مسامع ابنته، ليس لمرة واحدة بل لمرات عديدة بأن عليه ابعادها عن هذه المدينة.

فكانت ترد عليه: «وكيف يمكن أن نترك بليك، يا والدي؟ هذا إذا استطعنا أن نهرب بالفعل؟»

والليلة الماضية عندما أخذ الحديث يدور بينهما، كان بيار فالون قد نهض من أمام المائدة ليقول بحدة: «إحزمي كل ما نحتاج إليه من متاع.»

فنظرت زويا، إليه متوجسة: «ما الذي تنوي عمله، يا أبي؟»

«أريد أن أبعدك عن هذا المكان قبل أن يحترق المنزل فوق رؤوسنا أو أن يحطم الجنود الباب بغية السلب والنهب، وهذا اسوأ من كل شيء.»

سمعت نبرة الخوف في صوته، فأدركت أن خوفه ليس على نفسه بل عليها هي.

فأجابت بهدوء: «سأذهب معك، يا والدي، ولكن يجب علينا أن نأخذ بليك معنا.»

فلم يجب والدها. وهذا الصباح، عندما ترك المنزل، قال لها: «فليكن الباب مقفلاً على الدوام، وكوني، أنت وماريا،

على اتمّ الاستعداد للرحيل في أية لحظة، سآخذ جاكس معي لاجراء الترتيبات اللازمة.»

فسألته: «مع من، يا والدي؟» ولكنه لم يجبها.

أقفلت الباب الخلفي بعد خروجه، وقد أصبحوا يستعملونه الآن، لأن جاكس كان قد غطى الباب الأمامي بألواح خشبية كي يبدو المنزل غير آهل بالسكان.

كان يبدو بعيداً عن التصديق أن الجنرال كوتوزوف، بعد كل ما كان قد صرح به من أنه سيدافع عن موسكو حتى آخر نقطة من دمه، بأن يسحب جيشه تاركاً الطريق مفتوحاً أمام نابوليون وجنده لكي يدخلوا المدينة التاريخية.

ولكن العدد الهائل من الاصابات في الجيش الروسي جعل من المستحيل على كورتوزوف أن يهاجم الفرنسيين في سبيل الدفاع عن المدينة.

عندما صحا بليك من اغمائه، وأصبح بمقدوره استيعاب كل ما يحدث، أدرك أن السيد روبرت ويلسون كان محقاً في تقديره لعدد تلك الاصابات.

فقد قتل وجرح من الروسيين ثلاثة وأربعين الفاً من الروسيين، وثلاثين ألفاً من الفرنسيين.

وهكذا كان التقرير الذي تسرّع الجنرال كوتوزوف بإرساله إلى القيصر، بمثابة نصر ناقص لتخليه عن موسكو.

لقد أدرك بيار فالون، وذلك لكونه فرنسياً، مبلغ اليأس الذي شعر به نابوليون وهو يدخل العاصمة الروسية.

فقد كان يفكر وبشيء من الغموض، بأنه سيجد بأن خمسمائة قبة مذهبة أو مدهونة بألوان براقة في انتظاره،

وإذا به يكتشف، بعد ذلك بأسبوع، أنه كان قد امتلك، في الواقع، كومة من الخرائب المحترقة.

وكانت زويا قد سألته مرة: «ماذا سيفعل الامبراطور الآن، يا أبي؟»

«إنني واثق من أنه يتوقع أن يطلب القيصر منه، القيام بهدنة بينهما.»

وكانت زويا قد نقلت هذا الحديث إلى بليك، فقال، بعد أن فكر ملياً بما أخبرته: «أعتقد بأن خسارة موسكو ستترك تأثيراً عميقاً على القيصر كما على الشعب الروسي.»

فسألته: «ماذا تعني بذلك؟»

قال: «لدي شعور بأن الفجوة الواسعة بين النبلاء والفلاحين ستندمل، حالياً على الأقل، وأن القيصر، وبدافع الشعور الأليم العميق الذي يعاني منه الآن، سيرفض التفاوض.»

فسألته: «ما الذي يجعلك واثقاً من أن هذا ما قد سيحدث؟»

فنظر إليها، وقال بهدوء: «منذ أن عرفتك شعرت وكأنني أملك الحاسة السادسة والتي لم أكتشفها من قبل.»

تنهدت وقالت: «لقد علمت بأنك تملكها عندما... استمعت لي وأنا أعزف... لقد فهمت ما كان يعنيه والدي، عندما ألّف تلك الموسيقى.»

فقال متأملاً: «إنني لا أفهم نفسي.»

ثم أغمض عينيه وكأنه كان أضعف من أن يستمر في هذا الحديث.

في الأيام الثلاثة الأولى، بعد احضاره إلى منزل بيار فالون، كان مريضاً جداً، كما أن حرارته كانت قد ارتفعت

إلى درجة عالية، كما سبق وقالت ماريا، وكانت ماريا وجاكس يمسحان مكان الجروح بالخل بانتظام، رغم أنها أحياناً، وهذا ما لم تعترف به لزويا، كانت ترى أنه لم يعد بامكانهما القيام بأي شيء يمكن انقاذ حياته.

ولكنه عاش، وأرجع الطبيب ذلك إلى كونه رجل وافر الصحة من الأساس، كما أضاف مسروراً: «إنه شاب قوي جداً.»

قالت له عندما كان غائباً عن الوعي: «يجب أن تتعافى، إن العالم يريدك. هناك الكثير لتقوم به. عد، عد من حيث أنت الآن.»

وعندما أخذ في التحسن يوماً بعد يوم، كانت واثقة من أنها ساندته ودعمت قوته بطريقة كان سيضحك منها علم الطب.

لقد تحسن الآن، ولكنه ما زال يشعر بالضعف. وتساءلت بينها وبين نفسها عما إذا كان السفر الطويل سيتعبه، هذا إذا تمكن والدها من ابعاده.

كانت تعلم مقدار كراهية نابوليون وتعصبه ضد الانكليز الذين كانوا يحبطون عزائمه على الدوام.

لهذا لم يكن من المعقول ترك بليك أسيراً بين أيدي الفرنسيين.

كان على ما يبدو نائماً حين سمعت طرقاً على الباب الخلفي، فأدركت أن والدها قد عاد مع جاكس.

وبهدوء شديد، تركت الغرفة وهبطت السلم، وعندما وصلت وجدت أن ماريا قد فتحت الباب وأدخلت الرجلين.

وحيث أن، كلما غاب بيار فالون عن البيت، كانت تشعر

بالخوف لعلّه لا يعود، ركضت إليه لتراه، فقال لها: «لدي بشرى طيبة.»

«ما هي، يا والدي؟»

«لقد حصلت من الامبراطور نفسه ليس فقط على إذن بالرحيل، وإنما أيضاً على وعد بأن يرافقنا الحراس إلى أن نصبح خارج أسوار المدينة.»

لم تتكلم زويا، بل بقيت تنتظر، بينما أضاف والدها قائلاً بابتسامة باهتة: «إن الاذن يتضمن اسمك واسمي وماريا وجاكس وعازف في فرقتي الموسيقية كان قد أصيب، لسوء حظه، حين انهار عليه منزل يحترق. لقد أدركت طبعاً أنني أعني بليك.»

فهتفت زويا بارتياح: «آه، يا والدي. كيف تمكنت من تدبير ذلك. وكيف تجرأت على الذهاب إلى الامبراطور؟»

أجاب: «لقد طلبت مقابلته، فتذكرني في الحال، لقد تحدثنا عن آخر مرة عزفت فيها في باريس. ثم حدثته عن الورطة التي أنا فيها لوجودك معي.»

همت زويا بأن تقول شيئاً ولكنها تراجعت، بينما تابع هو يقول: «لقد قال الامبراطور، إنني أفهم قلقك هذا، وأظن أنه علي أن أدعك تذهب، رغم أنني كنت أفضل أن تبقى لكي تعزف لأجلي.»

وقد أجبت: «إنني أرجو أن أقوم بذلك في أوقات أفضل من هذه، يا سيدي، فقال الامبراطور، إنني أتطلع بشوق إلى هذا. إن دار الاوبرا في باريس في انتظارك.»

فشبكت زويا يديها معاً، وقالت: «يا له من اطراء رائع يا والدي. ولكن كيف سنتمكن من الرحيل؟»

«لقد كان جاكس قد أخفى عربتينا، وهذا من حسن الحظ، لأن كل عربة في المدينة كان قد أخذها اولئك الذين هربوا قبل دخول الفرنسيين.»

فسألته: «والجياد؟»

«إنها أيضاً موجودة في مكان آمن. لقد قررت الرحيل عند الفجر وهو الوقت الأكثر أماناً. لقد وعدنا الامبراطور بمرافقين من الجند. وفي مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح، فالاحتمال قليل في أن نصادف أولئك الذين يسلبون الناس في الشوارع.»

وأثناء كلامه، كان يفكر فيما رآه هو وجاكس من مشاهد مؤثرة ومحزنة وهما في طريقهما إلى الكرملين لمقابلة الامبراطور.

فأينما التفتا، كانت نظراتهما تقع على جنود يخرجون من المنازل، محملين ليس بالمال والمجوهرات فقط، وإنما أيضاً بالأحذية، والبياضات والفراء.

كما رأيا في الشوارع أيضاً، أناساً سلبت منهم ملابسهم، والذين حاولوا المقاومة، تعرضوا للضرب المبرح.

كما علما بأن الفرنسيين قد نهبوا المعابد، وأي امرأة غير مسنة، كانت تؤخذ بعيداً رغم صراخها ومقاومتها.

ولم يقل بيار فالون لابنته أن النيران المشتعلة في المدينة قد بدأت تقترب الآن بشكل خطر إلى الساحة الصغيرة الهادئة حيث ابتاع لزوجته بيت الدمى هذا.

صعدت زويا إلى الطابق الاعلى، وعندما دخلت غرفة بليك رأته مستيقظاً ينظر إليها وهي تقترب منه.

فسألها: «أعتقد انك تحملين خبراً ما.»

لم تسأله كيف ادرك ذلك، فقد كانت تعلم أنهما من التقارب الذهني بحيث كان يعلم دائماً ما تفكر فيه، تماماً كما كان حين عزفت على البيانو.

قالت: «سنغادر المدينة عند فجر الغد.»

«كيف؟»

«لقد حصل والدي على إذن خاص من الامبراطور بونابرت نفسه لكي نغادر المدينة، وسيقوم عدد من الجنود بحراستنا.»

«هل قابل الامبراطور؟»

لم تظهر الدهشة على بليك، وأجابت زويا: «نعم، وقد تذكره.»

ابتسم بليك ابتسامة باهتة وهو يجيب: «ومن يستطيع نسيان بيار فالون؟»

وإذ قال هذا، أخذت زويا تتساءل، بينها وبين نفسها، عما إذا كان هو سينساها بعد أن يستعيد صحته. ولكنها لم تجرؤ على إلقاء هذا السؤال عليه.

وسألها بليك: «وإلى أين سنذهب؟»

تنبّهت زويا، ثم قالت: «لقد نسيت أن أسأل والدي، يبدو أن هذا غير مهم، ما دمنا سنغادر موسكو.»

«أخبري والدك أن يتجه إلى أوديسا فأنا أعرف الحاكم هناك، وسيكون من السهل علينا أن نستقل السفينة من هناك لتبحر بنا إلى الوطن.»

وأغمض بليك عينيه. كان الحديث ما زال يجهده، بينما وقفت زويا بجانب سريره مترددة.

تبحر إلى الوطن!! أتراه يعني بذلك إلى وطنه هو؟ إلى انكلترا؟ وتمنت لو تسأله الايضاح، ولكنها كانت تخشى الجواب.

هذا ما يعنيه، بالطبع، لأن انكلترا هي سيدة البحار، ولهذا ستكون هناك سفن انكليزية سيشرّفها أن تعيد على متنها رجلاً بأهمية بليك.

ولكنها ووالدها، يعتبران بالنسبة للانكليز، أعداء.

وإذ شعرت بأنه لم يعد هناك ما تقوله، عادت إلى غرفتها والتي كانت في آخر الممر، ثم أخذت تضيف أشياء أخرى، على ما سبق وحزمته.

وشعرت فجأة بأن السبيل الوحيد للترويح عما يتضارب في نفسها من مشاعر، هي في أن تعزف الموسيقى.

وكانت، أثناء غيبوبة بليك، قد فكرت بما أن الصوت البشري فشل في الوصول اليه، بأن الموسيقى ستسهل عملية ذلك الاتصال، فأقنعت جاكس بأن يأتي بالبيانو، والموجود عادة في الصالوم إلى غرفتها في الطابق العلوي.

كان في المنزل آلتا بيانو، أحدهما وكان يفضله والدها عن الآخر، موجود في غرفة عمله الخاصة، والآخر كانت وأمها، تعزفان عليه، وكذلك الضيوف، والذين كان من النادر يخلو البيت منهم، فلا تضطران التوسل إلى بيار فالون لكي يسمعهما مقطوعاته الموسيقية.

اصبح الآن في غرفتها، وإذا كان باب كل من زويا وبليك مفتوح، فبإمكان بليك الاستماع جيداً.

أخذت تعزف بمهارة فائقة تلك الأنغام التي كانت تعزفها

في قصر سيفولسوف في أول يوم جاء فيه، فاستمع إليها وأدرك ما الذي كانت تراه وهي تعزف.

بدّدت هذه الانغام، والتي هي من تأليف والدها، كل مخاوفها من المستقبل، وأنستها، للحظات، النيران المتأججة في الخارج والدخان الذي حجب زرقة السماء.

لقد انتقلت بأحاسيسها إلى عالم من الجمال والسعادة، ولم تفكر في بليك إلا بعد أن انتهت، فأخذت تتساءل عما إذا كان نائماً أم أنه كان يستمع ويفهم كما فعل من قبل.

وبينما كانت تتساءل، سمعته يناديها باسمها، فوقفت واتجهت بسرعة إلى غرفته حيث وقفت قرب سريره.

نظر إليها، ثم قال بصوته العميق: «هل كنت تعزفين لأجلي؟»

«نعم.»

«هذا ما اعتقدته، إنني أتذكر مقدار الذهول الذي أصابني عندما سمعتك تعزفين لأول مرة.»

«والآن...؟»

«أظن أن الظروف هي التي جمعتنا، انها لم تجمعنا فقط، بل جعلتنا شاهدين سيذكرهما التاريخ، وهو شيء سنظل، نحن الاثنان، نتذكره بقية ايام حياتنا.»

كان من الصعب على زويا أن تفكر في أي شيء عدا ما كان يؤثر صوته العميق المنخفض، في نفسها.

ولكنها كانت تدرك أن عينيه كانتا تبحثان في وجهها عن شيء ما، ولكنها لم تكن واثقة ما عساه أن يكون.

قالت له: «عندما نخرج من موسكو، سنسير ببطء شديد.

كي لا تنزعج من تحركات العربة كثيراً أو ان تشعرك بعدم الارتياح.»

فقال: «أعرف تماماً أنك وماريا ستعتنيان بي، لكن ما سيشعرني حقاً بالارتياح، هو انك ستنجين بنفسك من موسكو، وذلك بفضل ذكاء والدك.»

نظرت إليه زويا بشيء من التردد. لم تستطع أن تفهم تماماً ما يفكّر به، بسبب تلك الكلمات التقليدية التي يستعملها.

شعرت بما يدفعها إلى أن تخبره بمبلغ حبها له، وبأنها على استعداد للتضحية بحياتها فيما لو ذلك يمنحه الصحة والأمان.

ولكنها فكرت أنه ربما سيشعره هذا بالاحراج، وينبّهها لأن تكون أكثر تحفظاً في سلوكها.

اتجهت نحو النافذة وأخذت تنظر إلى الخارج بعينين لا تريان أي شيء.

ولكنها ما لبثت أن رأت خلف المنازل القائمة في الناحية الأخرى من الساحة، الأضواء التي تعكسها النيران المستعرة، حتى انه كان بإمكانها رؤية اللهب يرتفع فوق الأبنية الرمادية.

وسمعت صوت خطوات والدها وهو يصعد السلم، ثم ما لبث أن دخل الغرفة.

سأل بليك: «لا بد أن زويا قد أنبأتك بالخبر.»

فأجابه: «كما سبق وقلت لك، ستكونون أكثر أمناً وربما أسرع بكثير إذا أنتم سافرتم من دوني.»

فأجاب بيار فالون: «على العكس، فأنا أنوي الذهاب إلى

أوديسا، وهناك سنكون بحاجة إلى مساعدتك لكي نجد طريقة نسافر بها إلى فرنسا.»

فأجفلت زويا، إذن، فذلك هو المكان الذي يرغب في الذهاب إليه... إلى بيتهم في فرنسا.

فأجاب بليك: «إني واثق من أن بالامكان تدبير ذلك.»

وأدركت زويا من طريقة كلامه بأنه متعب، فقالت: «أظن من الحكمة أن أطلب من جاكس، أن يعد لك عشاء خفيفاً، لتنام بعدها في الحال، فعلينا جميعاً أن نستيقظ في وقت باكر غداً.»

وإذ لم يجب بليك لم تشأ ازعاجه أكثر. فنزلت إلى الطابق الاسفل لتبلغ جاكس.

* * *

عندما خرجوا من موسكو والجياد الأربعة تجر عربتهم، بسرعة معتدلة، تنهدت زويا من الأعماق وقد شعرت بالارتياح.

عبروا الريف الذي لم تطله نيران القذائف، لكن المارة في الطريق، كانوا قلائل.

أخبرت والدها برأي بليك في أن يتوجهوا إلى أوديسا، فوجدت أن هذه كانت نية والدها أيضاً.

قال: «سيكون من المستحيل السفر إلى اوروبا وبرفقتنا رجل انكليزي. كما سيكون الأفضل أن نتجه جنوباً حيث الجو أكثر دفئاً مما قد يصبح هنا بعد فترة قصيرة.»

فقالت زويا: «هذا صحيح. فغالباً ما يشتد البرد في شهر تشرين الأول (اكتوبر).»

فقال والدها: «لقد تساقط الثلج العام الماضي في أواخر ايلول (سبتمبر). وهذا شيء من الحكمة أن يتذكره الامبراطور.»

وكانت زويا قد دهشت حين وجدت هذا الصباح، أن والدها، وربما جاكس، قد ارتبط مع ثمانية من الخدم ليرافقونهم.

لم تسأل أين كان أولئك الروسيون مختبئين، ولكنها فكرت انه لربما في نفس المكان الذي أخفى جاكس العربتين والجياد.

ولأنها كانت تعرف والدها جيداً، فقد شعرت بأنه يخشى من الجنود المكلفين بحراستهم ان يفكروا بمصادرة الجياد، والتي بعد مذبحة بورودنيا، لم يعد عددها يفي بالحاجة.

وبعد الفجر مباشرة، باشروا في التقدّم نحو بوابة روكوزكول التي سيخرجون منها إلى ضواحي الجهة الغربية من المدينة.

ولحسن الحظ، لم يكن ذلك يتطلب منهم اجتياز المكان الذي يتمركز فيه الجنود.

ولكن، بالرغم من ذلك، فقد كانت رحلة متعبة جداً، إذ عدا عن الخوف من أن يعترضهم أي فرنسي متطفل كان هنالك أيضاً خطر البيوت المحترقة والجدران التي تنهار من جراء ذلك.

وأثناء سيرهم، بدا لزويا وكأن ثلاثة أرباع المنازل التي مروا بها كانت تحترق، ولكن جاكس قال إنه ما زال في موسكو أجزاء لم تتدمر.

وكانت، أحياناً، تشعر بالحرارة الناتجة عن النيران تكاد تلهب وجهها. وعندما وصلوا إلى الجسر الذي فوق النهر، نظر والدها إلى الخلف وقد بدا على ملامحه تعبيراً جعلها تقول بسرعة: «ما الذي أثار الأسى في نفسك، يا والدي؟»

«لقد كان المسرح الكبير يحترق الليلة الماضية.»

«آه، يا والدي، يؤسفني جداً سماع ذلك.»

فقال: «ليس هذا بالغريب، فقد كان بناؤه من الخشب.»

كان صوته، وهو يتكلم، خالياً من أي تعبير تقريباً، ولكنها كانت تعلم كم يتألم في داخله.

لقد عاد يفكر في أمها، وكم كان مقدار سعادتها حين جاء إلى موسكو للمرة الأولى وهي تجد كم أن المسرح هو المكان الأمثل له، إذ سيمكنه من انشاء أوركسترا كبيرة على النحو الذي يريده بالضبط.

ولأنها أرادت أن تدخل الانشراح إلى صدره، قالت بصوت تعمدت فيه المرح والبهجة: «إننا نبدأ الآن فصلاً جديداً من حياتنا، يا والدي، ولدي شعور بأنه سيكون فصلاً مهماً وسعيداً بالنسبة إليك.»

فلم يجب والدها، وفكرت، بالرغم مما قالته أن ليس بإمكانها أن تقول لنفسها نفس الشيء. ولكنها كانت تعلم بأن المهم، حالياً، أكثر من أي شيء آخر، هو أن بليك قد أصبح آمناً وأنه بحاجة إليها في الوقت نفسه.

كان جاكس قد أقام له سريراً مريحاً للغاية وذلك في العربة الأوسع من العربتين، وقد استعمل لوحاً من الخشب يمتد من المقعد الخلفي إلى المقعد الصغير في المقدمة. ثم

وضع فوقه فراشين مريحين، وأنزل بليك، بمساعدة الخدم الجدد، إلى الطابق الأسفل.

ورغم حذرهم الشديد، فقد كانت زويا تعلم أن بليك تعرض للكثير من الألم، فقد رأت الشحوب يكسو وجهه، ولكنه لم ينطق سوى بالشكر للذين نقلوه إلى العربة.

كان في هذه العربة مكان يتسع لها ولوالدها أيضاً، ولكنها كانت مصممة على أن تقنعه، حالما يصبحون خارج المدينة، بأن يجلس في العربة الأخرى التي كانت حالياً، لا يشغلها سوى ماريا وعدد من الحقائب الصغيرة والرزم التي كانت قد أصرت في آخر لحظة، على احضارها معها.

أما الحقائب الكبيرة، فقد وضعت فوق العربتين. ولم تستطع زويا أن تمنع نفسها من التفكير، في أن من حسن الحظ ان الفرنسيين لم يروا الملابس الفائقة الأناقة التي يملكها بليك.

فبعد مقتل خادمه الخاص في الانفجار، نقل خدم الأمير سيفولسوف بذكاء منهم، كل امتعة بليك من عربة القيصر.

وكان كبير الخدم الذي كان قد رافقه إلى موسكو، قد أمضى في خدمة الأمير سنوات كثيرة، ويدرك جيداً كل ما يحتاجه السيد النبيل.

ولولا ذلك، لكان من الصعب، كما فكرت زويا، بأن يوفروا لبليك، الملابس التي سيحتاجها عندما يشفى.

أما هي وماريا فقد أخذتا معهما كل ما هو ضروري فقط لهذه الرحلة.

كان هناك أشياء صغيرة لكن كثيرة تحب زويا أن

تأخذها معها لأنها تذكرها بأمها، ولكنها كانت تعلم أن تحميل الجياد فوق طاقتها في مثل هذه الرحلة الطويلة قد يحول دون الوصول إلى المكان الذي يقصدونه بسلام.

وهكذا أرغمت نفسها على الاقتصار على كل ما هو ضروري، هذا إلى عدد محدودٍ من أجمل ثيابها.

أما الأكثر أهمية من أي شيء آخر، فقد كان إحضار ما يكفي من الطعام، فقد وجد جاكس أنه قد يكون من الصعب شراء ما قد يحتاجون إليه أثناء الرحلة.

«أثناء الحروب، يبلغ من خوف الناس بأن يزداد شعورهم بالجوع.» وأنا لا أستطيع أن أحتمل مرض أي منكما، أنت والسيد، بسبب الجوع. وكان هذا ما قاله جاكس لزويا قبل أن يشرعوا في رحلتهم.

ولم يشمل، بكلامه هذا، بليك وأدركت زويا أن جاكس يكره نوع هذا الرجل الغريب الذي أقحم نفسه في هذه الأسرة التي كانت تعيش براحة بال قبل مجيئه.

فقالت له بصوت مرتفع: «عليك ألا تنسى مريضنا العاجز، يا جاكس.»

فأجاب: «انني لن انساه، يا آنسة.» ولكن صوته جاء بارداً لا يحتوي على شيء من الشفقة.

ولكن ماريا، على كل حال، كانت ترى في بليك، أروع رجل رأته في حياتها. وعندما كان يشكرها، بصوته الهادىء، للمساعدة التي توفرها له، كانت تعلم مقدار شعوره بالألم والذي تمنعه كرامته من إظهاره.

وكانت زويا على استعداد للقيام بكل ما في وسعها لمساعدته. ولكن جاكس هو الذي كان، في الواقع، مسؤولاً

عن كل ترتيبات هذه الرحلة، وذلك منذ اللحظة التي غادروا فيها موسكو.

وعندما غابت، أخيراً عن انظارهم، موسكو، ولم يبق في الأفق سوى وهج النيران المتأججة، ظهر على ملامح بيار فالون تعبيراً أدركت زويا منه أن هناك قطعة موسيقية بدأت تتألف في ذهنه.

كانت تعلم جيداً تلك الدلائل، وعند ذلك، أوقفت العربة وقد أقنعت والدها بأن يأخذ مكان ماريا في العربة الأخرى.

فهو، إذا كان يؤلف قطعة موسيقية جديدة، لا شك انه يريد الانفراد بنفسه، وهي لا تريد من ذلك أن يكون أكثر ارتياحاً فقط، وإنما أيضاً، لكي تتمكن من التحدث إلى بليك دون أن يسمع أية كلمة تقولها.

منذ اللحظة التي أدرك فيها بيار فالون أنه من المستحيل أن يترك بليك في موسكو دون أن يتعرض للقبض عليه أو حتى للقتل لكونه انكليزياً، منذ تلك اللحظة توقف عن الاشارة إلى مشاعر زويا نحوه مرة أخرى.

ولكنها كانت تعلم أنه ما زال خائفاً من أن يتحطم قلبها لأجل رجل لن يكون له أي دور في حياتها.

وكأن بيار فالون قد أدرك أن المزيد من الحديث عن ذلك الأمر لن يفيد بشيء سوى تحطيم علاقته بابنته، كما كان قد حاول ابعاد هذا الموضوع عن ذهنه كلياً.

وفكرت بارتياح أن من الأفضل له حقاً لو أنه يركز اهتمامه على الموسيقى، فهذا يعني أن ليس لها، بعد ذلك، أن تشعر بالذنب في أنها تتحدى إرادة والدها، الذي كانت شديدة الاحترام له.

وانطلقت العربات مرة أخرى، بينما استسلمت ماريا للنوم حالما انتهت من القيام باحتياجات بليك. فقد كان السفر في العربة يحملها على النوم دائماً، ولاحت على شفتي زويا شبه ابتسامة وهي ترى أنها أصبحت أخيراً مع الرجل الذي تحب.

كانت تتوقعه نائماً، ولكنها عندما نظرت إليه، وجدته ينظر إليها، فسألته: «هل أنت مرتاح؟»

أجاب: «إنني أفكر كم كنت محظوظاً عندما لم تتركيني لأموت في بورودينو.»

فقالت: «لا تفكر في هذا. لقد أخبرت والدي أننا نبدأ الآن فصلاً جديداً من حياتنا، ولا أريد أن أفكر، بعد الآن، في ذلك العدد الهائل من الضحايا التي سقطت من كلّي الجيشين، أو في أن موسكو تحترق.»

لم يجب بليك، وبعد لحظة عادت تقول: «ستحدث في المستقبل مشاكل، بطبيعة الحال، ولكنها ستكون مشاكل جديدة، وقد نشعر بأنفسنا كالأشجار التي تستبدل اوراقها الصفراء بأوراق خضراء جديدة.»

وبعد لحظة، قال: «إنك فتاة غير عادية يا زويا. فأنا لم أعرف امرأة من قبل بامكانها أن تتقبل ما كان قد حدث في الاسابيع القلائل الماضية بمثل هذا الهدوء، أو تترك بيتها ليحترق عن آخره دون بكاء أو حتى شكوى.»

فأجابت: «لقد احزنني ذلك... احزنني كثيراً. ولكنني أنقذت ما يهمني أكثر من أي شيء آخر، وهو... والدي... وأنت.»

نطقت بالكلمة الأخيرة بنعومة فائقة دون أن تنظر إليه،

ولكنها كانت تعلم أن عينيه كانتا مسمرتين على وجهها، فأخذت تتساءل عن الذي يفكر فيه.

وبعد سكوت دام عدة دقائق، استدارت تنظر إليه فرأته قد عاد إلى النوم من جديد.

* * *

بعد ذلك، أصبح من الصعب على زويا أن تتذكر تفاصيل الرحلة الطويلة بين موسكو وأوديسا.

كان السفر بطيئاً، ذلك لأن على الجياد أن تأخذ قسطاً من الراحة، ولم يكن هناك إمكانية لتغييرها كما كان الأمر في الرحلة من بيترسبورغ إلى موسكو.

وفي الواقع، كانت الخيول نادرة بسبب الحرب إلى درجة أنه كان على أحد الخدم أن يبقى ساهراً أثناء الليل خوفاً عليها من السرقة، والأسوأ من ذلك، أن يهاجمهم اللصوص على حين غفلة.

وعندما أوغلوا جنوباً، اشتدّت الحرارة وكان هناك كروم للعنب يقطفها أصحابها في مثل هذا الجو الحار. وكانت الأشجار قد أثمرت وأزهرت في كل مكان، مما خلب لب زويا.

وسرعان ما اختفت دلائل الحرب، فلم يعد هناك جنود تتوجه إلى الشمال لتلتحق بجيش كوتوزوف، كما لم يعد العمل في الحقول مقتصراً على النساء فقط، بعد أن أخذ الرجال إلى الخدمة العسكرية.

وعوضاً عن ذلك، كان هناك عدد من الفلاحين، أخذوا بالتحدث إليهم باسمين، بينما يعرضون الأطعمة الطازجة للبيع.

وكانت الجياد قد أنهكها التعب، ولكن زويا شعرت بنشاط مفاجيء، وأدركت أن هذا نتيجة سعادتها لوجود بليك بينهم وقد تماثل للشفاء يوم بعد يوم.

كانا يتبادلان الأحاديث، وأحياناً أخرى يجلسان صامتين، ومع ذلك كانا يشعران بأن هناك اتصالاً فيما بينهما دون التكلم، وأن ثمة تقارباً بينهما لم تكن تجرؤ على تحليله.

وكان جاكس قد أعدّ الخيم لينام فيها أثناء الليل، وأحياناً كانت زويا تنام مع ماريا في العربة، بينما ينام والدها بجانب بليك.

وكانت زويا في هذه الليلة تجلس في الظلام مستيقظة، لتفكر في أن ما تشعره تجاه بليك يزداد كل ساعة وكل دقيقة كانت تمضيها معه.

ولم يكن هذا نتيجة الكلام الذي يوجهه إليها أو لأي سبب آخر يمكنها تعليله، بل لأنها كانت تجده الرجل الذي كانت تحلم به على الدوام... الرجل الذي أحبته سراً في الموسيقى التي عزفتها لمدة طويلة قبل أن تتعرف إليه.

وكانت لا تنفك عن التفكير كم هي سعيدة... لا بل أسعد من أي وقت مضى في حياتها.

ولكن، أخيراً، ولأن لكل شيء نهاية، لاحت لهم مدينة أوديسا في الأفق. وقال والدها بينما كانوا يتناول طعام الغداء بجانب الطريق: «سنأخذك يا سيد بليك إلى قصر الجنرال الحاكم ثم نفتش نحن عن مكان آخر لنا.»

فأجفلت زويا لكلمات والدها، ودون ادراك منها، نظرت إلى بليك متوسلة.

فسأله بليك: «ماذا تقول؟ إنكم طبعاً ستأتون معي، فأنا، كما تعلم، لا أستطيع أن أقوم بشيء من دونكم.»

فأجاب بيار فالون: «أعتقد ان من الأفضل، يا سيد بليك، أن نمكث بمفردنا. وبعد، كما لا بد أنك تعلم، فقد يعتبرني الحاكم عدواً لشعبه، كبقية أبناء قومي.»

ابتسم بليك قائلاً: «إن الحاكم في الواقع، هو رجل فرنسي.»

بدت الدهشة على وجه بيار فالون، فقال بليك موضحاً: «كان الدوق دي ريشيليو قد هاجر أثناء الثورة الفرنسية ليلتحق بخدمة روسيا. وفي سنة ١٨٠٣ أصبح الجنرال الحاكم لروسيا الجديدة والتي تُسمى أوكرانيا. وهو الذي سعى في تطوير مرفأ أوديسا والذي أعرف تماماً أنه سيعجبك.»

وإذ بقيت الدهشة على ملامح بيار فالون، أنهى بليك كلامه بالقول: «إنني واثق من أنك وزويا ستستقبلان بالترحيب الحار في القصر.»

ولكن بيار فالون قال وهو ما يزال متردداً: «إذا كنت واثقاً من أننا لن نكون مصدر احراج لك، فإننا في هذه الحال، سنتشرف بمرافقتك.»

فقال بليك: «هل لي أن أعلمك أيضاً بأن الجنرال الحاكم هو موسيقي كبير؟ وفي الواقع، ما زلت أذكر مقدار الضجر الذي شعرت به، وذلك في آخر مرة كنت فيها هناك منذ سنوات، وأنا مضطر للاستماع الى عزف الفرقة الموسيقية اثناء وجودي في القصر.»

فضحك بيار فالون: «إن هذا طبعاً، إطراء بالغ. ولكن

ما اعرفه عنك يا سيد بليك، هو انك مولع بالموسيقى.»

«مولع جداً، هذا إذا كانت الموسيقى جيدة، وأنا أتطلع بشوق إلى الاستماع الى ما كنت تؤلفه أثناء الرحلة.»

فأجاب بيار فالون: «سيكون من دواعي سروري أن أعزفها لك. ولكنها، في الواقع، تحتاج إلى فرقة موسيقية كبيرة.»

فقال بليك: «أظن أن الحاكم سيتمكن من توفير ذلك لك.»

فسألته زويا: «هل أنت واثق من أن اصدقاءك سيرحبون بنا؟ قد يعتبروننا مصدر ازعاج لا يطاق، أو ربما كان القصر ممتلئاً بالضيوف.»

أجاب بليك: «انتظري إلى أن تريه.»

وصلوا عصر اليوم التالي، وعندما رأت زويا أشجار السرو الباسقة تتعالى بشموخ والبحر من خلفها، والتي كانت قد غرستها أولاً، الامبراطورة كاترين الكبرى، فكرت في أنها لم تر من قبل مبنى يضاهي بجماله، جمال قصر الحاكم هذا.

وقفت وقد اخذتها الدهشة لجمال القصر المتألق حيث أحاطت به الأزهار والشجيرات المختلفة الألوان.

وإذ اتجهوا نحو القصر، انتبهت زويا إلى حالتها وقد علاها الغبار، كما أن بليك كان في حالة شديدة من التعب.

ومع ذلك، عندما صعد الخدم إلى القصر، وابلغوا أول ضابط حرس شاهدوه، بوصول بليك، ثم الحاكم نفسه، لم يبق ثمة شك في مبلغ الترحيب الذي تلقوه جميعاً، ولم يعد لبيار فالون أية خشية من أن يكون، هو وابنته، مصدر احراج لبليك.

فقال له الحاكم: «لقد سمعتك تقود فرقتك الموسيقية في لندن. وأؤكد لك، يا سيد فالون أن لا شيء يسرني أكثر من استضافتك في قصري.»

وعندما قدم بليك زويا إليه، قال الرجل الفرنسي يمتدحها وقد أطل الدهاء من عينيه: «هنالك طريق واحد يسهل عليك عملية الدخول الى قلب أوديسا، وهو الجمال.»

فصبغت حمرة الخجل وجه زويا.

كان بليك، من الارهاق، بحيث استغرق في النوم حالما نقله أحد الخدم إلى غرفته وساعده على النوم في السرير. ولكن زويا، بعد أن اغتسلت من عناء السفر، ارتدت أحد أجمل ثيابها، ثم نزلت إلى الطابق الأسفل.

رحبت بهم السيدة دي ريشيليو زوجة الحاكم، رغم أن بعض السيدات المقيمات في القصر كن على شيء من البرود، وقد وجدت في زويا منافسة لهن في كل شيء.

لكن، وبما أنهم قادمون من موسكو ويحملون الأخبار عن المعركة التي كان بعضاً منها قد وصل إلى أوديسا، جعل من بيار فالون مركز الاهتمام، وكان عليه أن يشرح كل شيء بالتفصيل، هذا وقد ذكر ايضاً المقابلة الخاصة التي جمعته بالامبراطور.

وقالت زوجة الحاكم: «كيف بإمكانه أن يتصرف بمثل هذه الطريقة القاسية، فهو لا يعدو أن يكون كورسيكياً متوحشاً.»

فقال زوجها الحاكم: «إنني أوافقك الرأي في هذا، يا عزيزتي، ولكن المرء عليه أن يعترف بأن قيادة ستمائة ألف

جندي طوال كل هذه المسافة، والدخول بهم الى موسكو دون اية مقاومة تذكر، إنما ذلك لعمل جريء حقاً.»

فهتفت إحدى السيدات: «يا ليته اصيب مع أحد تلك المنازل الجميلة. فلقد كنت أنوي الذهاب إلى موسكو الشتاء القادم لحضور الحفلات الهامة.»

فأجاب بيار فالون: «من المؤكد أنه لن يكون هناك أية حفلات بعد الآن، كما اشك ان يبقى جدار واحد واقف في المدينة بعد خروج الفرنسيين، عدا ربما الكرملين.»

فسألته زوجة الحاكم: «ولماذا يخرج الفرنسيون؟»

فأجاب بيار فالون: «سيكون عليهم ذلك، فلا يوجد من طعام يكفيهم لمدة طوية. وما بقي في المدينة من الروسيين المختبئين في المعابد والأقبية، قد أصبحوا الآن في حالة مخيفة من الجوع الشديد.»

فصرخت إحدى السيدات قائلة: «لا أستطيع التفكير في ذلك، كل ما أتمناه هو أن يموت كل جندي من جنود العدو البغيض.»

وإذ ساد سكون غير مريح بعد كلامها هذا، تذكرت السيدة أن الحاكم وبيار فالون، هما فرنسيان.

ثم أخذ الجميع يتحدثون بسرعة وفي وقت واحد.

* * *

بعد مضي بضعة أيام، لم تعد زويا تعاني من الاحراج، بعد أن لم تجد سوى اللطف والرعاية حتى من الضيوف الروسيين في القصر.

قالت لها مرة كونتس عجوز: «تملكين عينين روسيتي

الشكل، يا عزيزتي، وأنا أعلم أنك كأمك وجدتك، بالغة في الحساسية.»

وتنهدت لتتابع: «وهذا يعني، بالنسبة إلينا نحن الروسيين، اننا نبتهج بسرعة، ونيأس بالسرعة نفسها. ولا يمكننا الحصول على شيء دون الآخر.»

فأجابت زويا: «وهذا رأيي أنا أيضاً يا سيدتي.»

ذلك أنها كانت تعلم أن وجودها مع بليك لهو أمر مبهج، ولكن ما هو ادراكها بأنه كلما تماثل للشفاء يوماً بعد يوم، كلما اصبح الفراق بينهما قريباً.

حالما ارتاح بليك من تلك الرحلة المرهقة، أصبح بإمكانه الجلوس على شرفة غرفة نومه الفسيحة والمطلة على الحديقة والبحر.

وبعد ذلك بأيام قليلة، حمل إلى الطابق الأسفل ليجلس في الشرفة الواسعة المسقوفة.

قالت زويا: «ما أجمل هذا المكان.»

كانت تقول هذا وهي تستمع إلى زقزقة العصافير بينما الهواء يحمل اليها رائحة البحر.

فأجاب بليك: «ينقصنا شيء واحد فقط.»

فسألته: «وما هو؟»

«عزفك للموسيقى.»

«أتريدني أن أعزف لك؟»

«كم أحب ذلك.»

وكانت قد شاهدت آلة البيانو في الغرفة من خلفهم. ودون أن تضيف شيئاً، توجهت اليه.

كانت النوافذ مفتوحة بأكملها، حتى انه كان بامكانها

رؤية بليك أثناء العزف، ففكرت بأن تسمعه احدى مقطوعات والدها التي يصف فيها جمال الطبيعة.

ولكنها عندما ابتدأت بالعزف، أخذت تعبر بالموسيقى، دون ادراك منها، ليس عما كان والدها يشعر به وهو يؤلف هذه القطعة، بل ما كانت تشعر هي به شخصياً.

كانت الموسيقى التي تعزفها تنضح بالبهجة واليأس معاً وللذين كانت الكونتس قد تحدثت عنهما قبل الآن.

أخبرته في المقطوعة التي تعزفها، كيف كانت تؤمن على الدوام بأنها يوماً ما، ستجد ذلك الحب الذي وجدته أمها من قبلها... يوماً ما، سيظهر الرجل الذي لم يكن سوى حلم يراودها.

والآن قد أصبح ذلك حقيقة... حقيقة ملموسة... فهي قد عرفته منذ رأته لأول مرة لأنها كانت قد سبق ووقعت منذ سنوات في غرامه.

أخبرته كيف أن قلبها، إذا هي لم تره بعد ذلك قط، سيكون معه على الدوام، وما كان قد أيقظه في نفسها سيستمر حياً حتى آخر عمرها، لأنه سيكون قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتها.

وكعادتها كلما كانت تعزف، تحملها الموسيقى بعيداً، فنسيت كل شيء عدا ما كانت تعبر عنه لأنه كان يتدفق كموج البحر.

وعندما انتهت، وكأنه لم يعد هناك ما تعبر عنه، بدا عليها التعب فجأة، وذلك لأنها سكبت ما في نفسها من مشاعر في الموسيقى التي أبدعت في عزفها.

عند ذلك فقط أدركت أن هناك عدداً من الاشخاص كانوا يستمعون إليها ايضاً، ومن بينهم والدها.

www.rewity.com

كانوا قد خرجوا إلى الشرفة وجلسوا مع بليك. لم يحدثوا أي ضجة، وإنما استمعوا بصمت، وقد كان من المستحيل لأي شخص ألا يتأثر بما يسمع.

وعندما عادت زويا من العالم الذي أخذتها إليه تلك الموسيقى، رأت وجه والدها فأدركت أنها كشفت عن مشاعرها بصراحة، وهذا ما جعله يتأثر بعمق بما عرفه، كما تملكه الخوف في الوقت نفسه.

أدركت زويا أنها خانت نفسها فوقفت، دون أن تعتذر، ثم غادرت الغرفة وهي تسير في ممرات القصر، وكأنها في حلم، وصعدت السلالم باتجاه غرفة النوم حيث ملجأها الأمين.

الفصل السابع

عندما صعدت زويا إلى غرفتها لتغيّر ملابسها استعداداً للعشاء، وجدت على السرير الشال البالغ الأناقة الذي كانت زوجة الحاكم قد أهدتها إياها.

ذلك أنه منذ ثلاثة أيام، كان الحاكم قد قال أثناء الغداء: «إن ضيفنا البالغ الاحترام، السيد بليك ويلمنستر، اخبرني بأنه يشعر بأن صحته قد تحسنت إلى حد أنه يستطيع حضور الحفلات. ولهذا فأنا سأدعو كل من كان متشوقاً للتعرف إليه منذ علموا بحضوره إلى اوديسا.»

«حفلة؟ وأي نوع من الحفلات؟»

فابتسم زوجها الحاكم، وأجاب: «إنها حفلة عشاء وتعارف، يا عزيزتي طبعاً، واكراماً للسيد فالون، سيأتي أفضل من في روسيا الجديدة من موسيقيين، وأرجو أن يجدها ضيفنا السيد بليك بمثل عظمة وروعة الموسيقى الملكية التي استمتع بها في بيترسبورغ.»

فابتسم بليك وقال: «عندما كنت ضيفاً لدى القيصر، لم تكن هناك حفلات بالمعنى المفهوم بسبب الأوضاع الراهنة، بل حفلات استقبال اتصفت بالرزانة، وكان كل من فيها يتحدث عن الموضوع ذاته.»

فقال الحاكم: «سأصدر مرسوماً بعدم التحدث عن الحرب في الحفلة التي سأقيمها وعلى الجميع اظهار المرح وعدم الاهتمام.»

كانت زويا تستمع إلى هذا الحديث وهي تفكر في ما ستشعر به من السرور إذ ستحضر حفلة كتلك التي طالما تحدّثت أمها عنها، كانت تعلم تماماً كم ستكون مثل هذه الحفلة على جانب كبير من التألق، ابتداءً من الثريات البلورية إلى الضيفات المثقلات بالجواهر.

ولكنها كانت تعلم، وفي قلبها غصة، بأن بليك وبعد أن تعافى الآن، سيقرر مغادرة أوديسا، واللحظة التي ستودعه فيها باتت تقترب أكثر فأكثر.

الشخص الوحيد الذي لم يظهر السرور لهذه الحفلة، كان والدها، وذلك لأنه كان دوماً يكره الحفلات. وخيّل إلى زويا أنه لن يهتم كثيراً لوجود أيّ من الموسيقيين الذين سيدعوهم الحاكم احتفاءً به.

لكنها، وكما تفعل معظم النساء، أخذت تفكر في ما عليها أن ترتديه.

كانت تريد أن يعجب بها بليك، وإذا ما ضاهتها بقية النساء، أناقة وجمالاً، فلا بد أن يكون في ذلك إذلال كبير لها.

كانت قد أحضرت معها، لحسن الحظ، ثوباً للسهرة، رائع الشكل والتطريز لم تكن قد ارتدته يوماً من قبل، وكانت تحتفظ به لحفلات الشتاء التي كان يقيمها حاكم موسكو السيد روستوبشين، في الكرملين.

لقد دعيت إلى إحدى تلك الحفلات في السنة الماضية، ومع أنها كانت ما تزال في فترة الحداد على أمها، إلا أنها فكرت في مبلغ السرور الذي ستجده في مرافقة والدها إلى مثل هذه الأماكن، وهكذا قامت بمساعدة

ماريا بخياطة ثوب أبيض اللون، مطرز انيق للغاية، املت أن يعجب والدها.

كانت تعلم، وذلك من بعد الذي حدثتها به أمها، أن السيدات في مثل هذه الحفلات المكلفة والتي تنافس حفلات القصر الملكي، يضعن أوشحة طويلة.

لكنها لم تكن لتملك مثل هذا الوشاح، وتساءلت عما إذا كان عليها أن تخبر مضيفتها بذلك، وسرعان ما غيرت رأيها.

وجاءها ليلة الأمس من يدعوها للذهاب إلى زوجة الحاكم، وعندما وصلت إلى الجناح، وجدت مضيفتها تجلس على مقعد مستطيل. فقالت لها: «اجلسي يا فتاتي، فأنا أريد التحدث إليك، اننا لم نجد فرصة واحدة منذ قدومك، لنتحدث فيها على انفراد.»

فأجابت زويا: «إن استضافتك لنا، والدي وأنا يا سيدتي لهو لطف بالغ منك.»

أجابت زوجة الحاكم: «إن شأن والدك هو من اختصاص زوجي، ولكن شأنك أنت هو من اختصاصي أنا، وذلك إكراماً لأمك.»

فسألتها زويا وقد شعّت عيناها: «هل كنت تعرفين أمي؟»

«لقد تعرفت إليها في فرنسا بعد زواجها من والدك مباشرة، وقبل أن نهرب زوجي وأنا من بلادنا بعد صدور الحكم بأن تقطع المقصلة رأسينا.»

ومدت يدها تمسك بيد زويا قائلة برقة: «إنها لم تعد معك الآن، وأنا أعلم مقدار افتقادك لها، إنك تشبهينها كثيراً.»

فاغرورقت عينا زويا بالدموع إزاء الحنان الذي لمسته في صوتها، وإذ استحال عليها أن تتكلم، تابعت زوجة الحاكم: «إنني أعلم أنه في مثل هذه الظروف التي وجدت فيها حالياً انه لو كانت أمك موجودة لأرادت أن تستمتعي بالحفلة التي ستقام ليلة الغد. ولهذا يجب أن تسمحي لي بأن أعطيك وشاحاً ترتدينه فوق ثوبك، والذي كما لا شك تعلمين، ضروري في مناسبة كهذه.»

أجابت زويا: «إنني أعلم هذا، يا سيدتي ولذلك شعرت بالحرج لعدم امتلاكي واحداً.»

فقالت زوجة الحاكم: «لهذا يجب أن ألبّي حاجتك. انظري إلى الوشاح الذي فوق السرير في الغرفة المجاورة واخبريني عن رأيك به.»

فدخلت زويا إلى غرفة نوم زوجة الحاكم، وإذا بها تفاجأ بأجمل وشاح رأته عيناها.

كان من الحرير الأزرق الفيروزي وقد طرّز باللؤلؤ، وأطرافه من الفرو الأبيض الناعم.

حدقت فيه بسعادة، ثم عادت إلى مضيفتها وقالت: «إنه جميل جداً. هل أنت واثقة من أنك تريدين إعطائي شيئاً ثميناً إلى هذا الحد؟ ربما أستعيره منك لهذه الحفلة فقط.»

فقالت زوجة الحاكم: «بل هو هدية مني إليك، كما أن لديّ دبوساً يناسبه أريدك أن تتحليّ به.»

تناولت علبة مخملية وفتحتها، فرأت زويا دبوساً رائعاً من الفيروز والماس، ما جعلها تهتف بسرور عظيم.

وشبكته على صدر ثوبها الذي كانت ترتديه في تلك اللحظة، ثم قالت: «لا أستطيع أن أوفيك حقك من الشكر

لهاتين الهديتين، وأنا واثقة من أن الفيروز سيجلب لي الحظ كما يقال.»

فقالت زوجة الحاكم: «هذا صحيح، إذ هنا وفي بلاد القوفاز، يعتبر الفيروز جالباً كبيراً للحظ، وربما هذا ما تريدينه حالياً.»

فلم تجب زويا، ولكن زوجة الحاكم لمست الحزن في عينيها، فقالت لها بهدوء: «لقد كانت الحياة صعبة بالنسبة إليك، وخصوصاً لأن الدولتين اللتين تنتمين إليهما، في حالة حرب، ولكن شعوري يحدثني بأنك ستجدين السعادة في الوقت المناسب.»

فقالت زويا بصوت خافت: «أرجو... ذلك.»

ثم، لأنها لم تكن تريد أن تتحدث عن بليك مع أحد، شكرت زوجة الحاكم مرة أخرى، ثم عادت إلى غرفتها.

وعندما انفردت بنفسها، أخذت تتساءل، من اين لها ان تجد السعادة في حياتها بينما ستفارق بليك. كانت تشعر بالسرور وهو يتعافى يوماً بعد يوم، أولاً لأجله، وثانياً لاحساسها بأنها هي من ساعدت على شفائه بهذه السرعة.

ولكنها، في نفس الوقت، كانت تعلم أن هذا الشفاء السريع، يقربها اكثر فأكثر من النهاية، والابتعاد عنه.

وتساءلت كيف ستتمكن من التلفظ بكلمة الوداع، والذي كان يخيفها، أنها وفي ساعة الفراق، قد تنهار كلياً.

ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأن كرامتها ستأبى عليها التصرف بهذا الشكل.

كما انها الكرامة التي تجري في دم آل ستروفولسكي

التي اكتسبوها من تراثهم العريق، وكذلك من والدها الذي اكتسبها من الموهبة الموسيقية التي يتمتع بها.

ولكنها، عندما أخذت تتمشى مع بليك في الحديقة تستمع إليه وهو يحدثها بصوته العميق، أدركت أن حبها له اخذ بالازدياد بحيث كان من الصعب عليها التصرف بالشكل الذي يتوقعه منها.

كانت تتساءل أحياناً عن السبب الذي جعل البعض يطلقون عليها اسم فتاة الثلج، الى ان اصبحت في وقت من الأوقات تصدق ذلك هي الأخرى، الى أن التقت بليك.

إنها لم تعزف على البيانو منذ ذلك اليوم الذي عزفت فيه لبليك كاشفة إن لم يكن له فلوالدها، عن أعمق مشاعرها. ومنذ ذلك الوقت كانت ما زالت تشعر بالخجل لتصرفها ذلك.

* * *

أعدت الخادمة حماماً لزويا معطراً بماء الورد. وكان من المستحيل عليها أن لا تفكر في بليك وفي الأشياء التي تحدث عنها حين كانا يتمشيان في أرجاء الحديقة هذا النهار.

وكان هنالك آخرون يتمشون مثلهما، ورغم أنهما كانا بعيدين عن سمع الآخرين، إلا أن زويا كانت تشعر أن كلامهما يسمعه الجميع.

سألته: «هل أنت في صحة جيدة حقاً؟ ألا تعتقد ان حفلة هذه الليلة قد تتعبك؟»

أجاب بليك: «لقد ألقت عليّ ماريا السؤال نفسه، رغم أنها

كانت قد قالت بأن جراحي شفيت تماماً وبأنها لن تدللني بعد الآن أكثر مما تفعلين أنت.»

«ولكنني... لا أفعل ذلك.»

لكنها، وبينما قالت ذلك، كانت تدرك أنها ليست الحقيقة. لقد كانت تريده أن يبقى عاجزاً فلا يستغني عنها ولا عن ماريا.

فتابع بليك يقول: «لقد اندملت جراحي، ولكن أثارها لن تزول، وستبقى ذكرى لمعركة بورودينو، وحتى آخر يوم في حياتي.»

فقالت زويا: «هذا شيء لا أحب أنا أن أتذكره، فعندما أحضرك الخدم إلى منزلنا في موسكو، ظننت أنك ميت.»

فقال بمرح: «لم يكن مكتوباً لي أن أموت... وسأخبرك، عن السبب في يوم من الأيام.»

فنظرت إليه مستطلعة، تتساءل عما عسى أن يخبرها به، ولكنه لم يكن ينظر إليها، بل إلى البحر الممتد نحو الأفق.

وفكرت، وقد شعرت بانقباض في قلبها، بأنه يفكر دون شك، في وطنه انكلترا.

وتساءلت عما إذا كان بإمكانها أن تسأله متى يعتزم الرحيل عن أوديسا. لو فعلت ذلك لن تحتمل سماع الجواب. فذلك سيسبّب لها الألم الشديد، وقد تخونها مشاعرها عندما تعلم بموعد الفراق.

قال بليك: «سأتذكر دوماً جمال هذه الحديقة، وكيف انك تبدين كواحدة من أزهارها.»

تلاقت نظراتهما، فشعرا وكأنهما قد أصبحا متقاربين مثلما كانا حين استمع إلى عزفها وعرف بماذا كانت تفكر.

ولكن، قبل أن تتمكن من الكلام، إذا بآخرين ينضمون إليهما ويأخذون بالحديث عن حفلة الليلة. وبعد استحمامها، جلست أمام المرآة حيث أخذت الخادمة تسرح لها شعرها استعداداً لحفلة الليلة.

ومن بين مجوهرات أمها التي كانت قد أحضرتها معها، كان هناك اكليلاً جميلاً من الماس كان قد أهدي إلى أمها في ذكرى مولدها السابع عشر.

أخرجته زويا من العلبة، وقد شعرت أنها إذا تزينت به هذه الليلة، فهي ستتذكر والدتها أثناء أكبر حفلة تحضرها في حياتها.

وكانت زويا قد رأت أمها في هذا الاكليل عندما كانت تصحب والدها إلى بعض المناسبات الهامة، حيث كانت زويا وقتها أصغر سناً من أن تدعى إليها.

قالت لها مرة: «تبدين يا أمي كالأميرة التي يروى عنها في الروايات وأبي هو طبعاً الأمير الوسيم.»

فأجابت أمها: «وهذا ما يشعرني به على الدوام.»

ثم رفعت والدتها يدها لتلمس الاكليل على رأسها مضيفة: «إنني مسرورة لكوني سأتمكن من الاحتفاظ بمركزي بين كل أولئك الناس المرموقين ذوي الأهمية الذين سيحضرون هذه الحفلة، لقد كنت على وشك أن أبيع هذا الاكليل في بداية عهد زواجي، فقد كنا فقراء جداً قبل أن يشتهر والدك، ولكنه أصر على أن أحتفظ به، وكم أنا مسرورة الآن لذلك.»

لم يكن هذا لكونه ثميناً، ولكن لأنه كان يمثل كل ما تخلّت عنه أمها في سبيل حبها.

وحدثت زويا نفسها: «كان هذا يمثل لأمي شيئاً هاماً وهذه الليلة سيكون كذلك لي، وربما لن أحضر حفلة مثلها مرة أخرى في حياتي.»

كانت واثقة من أنه متى وصلوا إلى فرنسا والحرب ما زالت قائمة، فستكون المناسبات قليلة لارتداء مثل هذه الملابس.

كانت والاكليل على رأسها، تبدو فعلاً من سلالة الملوك، وساعدتها الخادمة على ارتداء ملابسها أولاً، ثم ثبتت بعد ذلك الوشاح على كتفيها ومنحها ذلك وقاراً لم تعهده من قبل، لكن عندما نظرت إلى نفسها في المرآة، فكرت فيما سيكون رأي بليك فيها. وفتح الباب في تلك الاثناء ليدخل منه والدها.

فسألته: «هل أنت جاهز، يا والدي؟»

وتحوّلت عن المرآة لكي يتمكن من النظر إليها، فقال: «أريد أن أتحدث إليك.»

تغيرت ملامح وجهها، وأشارت إلى الخادمة بأن تترك الغرفة.

وعندما خرجت وأغلقت الباب خلفها، قالت لوالدها: «ماذا يا والدي؟»

وشعرت بفطنتها، أنه كان يبحث عن الكلمات المناسبة ليبدأ معها بالحديث.

فعادت تسأله: «ماذا... يا والدي؟»

أجاب: «هناك سفينة تركية في المرفأ، وستبحر عند الفجر.»

حبست زويا أنفاسها، بينما تابع والدها يقول: «لقد

تحدثت إلى القبطان، وسيأخذنا معه إلى مارسيليا. وهذه فرصة علينا الاستفادة منها.»

ابتدأت بالقول: «ولكن... يا والدي...»

فقاطعها: «قبل أن تقولي أي شيء، دعيني أخبرك بأن سفينة انكليزية حربية يتوقع وصولها خلال يومين أو ثلاثة. وقد سمعت بليك يقول لقائد حرس الحاكم، بأنه يريد مكاناً فيها إلى انكلترا.»

عقدت الدهشة لسان زويا، ثم جلست على كرسي شاعرة بأنه لم يعد بامكانها الوقوف أكثر

فقال والدها: «ما أريدك القيام به، هو أن تتركي هذه الحفلة ثم تستقلي العربة مباشرة إلى السفينة، حيث سأكون أنا بانتظارك.»

رددت كلامه بغباء: «أترك... الحفلة؟»

فقال: «هذا سيكون الخيار الأفضل، يا حبيبتي، فما الفائدة من تعذيب نفسك حين تودعين بليك، بينما لن تجني من ذلك سوى تعاسة أكبر مما أنت عليها حالياً.»

«إنك تعلم... كم أحبه... يا والدي.»

فقال: «نعم، أعلم، ولكن كما سبق ووافقتني على ذلك منذ البداية، لن يكون ثمة نهاية سعيدة لقصتك. ولهذا، أظن أن طريقتي في الرحيل هذه سيكون وقعها، أخف وقعاً لك وله أيضاً.»

فسألته: «أخف وقعاً... عليه؟»

سألها: «وما الذي سيفعله عدا الشكر لك؟ إن السيد بليك ويلمنستر، رجل مرموق في انكلترا كما كان جدك في روسيا، وللاثنين الانفة والكبرياء بسبب السلالة التي

ينحدران منها بحيث لن يتنازلا عن مستواهما في سبيل أي شيء كان... ولو في سبيل الحب.»

كانت تعلم أن ما يقوله والدها هو الحقيقة بعينها، ولكن هذا لم يخفف ما شعرت به من الألم والقنوط.

قال والدها: «عليك التغلب على الأمر بشجاعة، وبصراحة انها الطريقة الأسهل.»

ولم ينتظر الرد منها، بل تابع يقول: «لقد كلمت ماريا، وهي تحزم الأمتعة الآن، وستترك مع وجاكس القصر عند المساء حيث يستقلان العربة إلى السفينة.»

وانتظرت زويا لما سيقوله بشأنها، فقال: «وسأكون أنا بانتظارك في نهاية الحديقة في عربة مقفلة، إذ قد يثير مغادرتنا للحفلة في وقت واحد، التساؤلات الكثيرة.»

وفكرت زويا في أن بليك قد يمنعهما عن الرحيل، ولكنها كانت تعلم أن ما من فائدة من قول هذا بصوت مرتفع، وبقيت تستمع إلى والدها وهو يتابع قائلاً: «علمت بأن الحاكم قد أحضر فرقة غجرية للعزف وذلك في حوالي منتصف الليل، وأنا آسف لأن هذا سيفوتنا، واقترح أنه وبينما سينصب اهتمام الحاضرين عليهم، تنسلّين أنت إلى الحديقة ومنها إلى حيث سأكون بانتظارك.»

فقالت: «تصرفنا هذا... يبدو فظاً للغاية.»

فقال: «لقد سبق وفكرت في هذا، فكتبت رسالة إلى الحاكم وزوجته أشكرهما فيها على حسن ضيافتهما.»

«و... بليك؟»

انفجر هذا السؤال من بين شفتيها دون أن تستطيع منعه.

فأجاب بيار فالون: «عندما يعلم بليك بذهابنا، سيستحسن

منّا هذا التصرف، وبأننا أنقذناه من مواجهة موقف حساس قد يسبب له الإحراج.»

ولوى شفتيه بشيء من السخرية وهو يضيف قائلاً: «الانكليز لا يحبون أي شيء قد يقضي على مركزهم التقليدي.»

فسألته: «أحقاً انك لا تظن أنه سيعتبر... ذلك منّا، تصرفاً فظاً... إذ لا نبلغه بما نريد... القيام به.»

فسألها: «أتريدينني أن أكون صريحاً معك؟»

«طبعاً يا والدي.»

قال: «إذن، ولكي أكون صادقاً معك، بليك يراك جميلة جداً فقط، ولكن علينا أن نواجه الحقيقة، يا حبيبتي، وهي أنه يطلب أكثر من ذلك في المرأة التي يريد أن يجعلها زوجة له.»

أغمضت زويا عينيها، وكأنها تمنع نفسها من الانفجار، ثم قالت بصوت ينضح كآبة وتعاسة: «سأفعل ما تريده مني... يا والدي... لأنني أثق بك... وربما من الأصح أن تنقذ بليك... من أي شعور بالاحراج.»

فقال: «إنك عاقلة جداً يا عزيزتي، وصدقيني إذا قلت لك، انه لو بإمكاني أن أنقذك من كل هذه الآلام، أن أتحمل عنك ما تشعرين به من قنوط، لكنت فعلت ذلك دون اي تردّد.»

فجعلتها كلماته هذه، أن تقف وتتقدم منه وهي تقول: «كنت أظن ان الحب... يعني السعادة... والفرح. ولكن ما أشعر به هو ظلمة دامسة تجعلني اشعر بالتعاسة الدائمة.»

فقال: «هذا ما شعرت به حين ماتت أمك. ولكن الحياة

ستستمر، وربما ستلتقين يوماً ما شخصاً آخر تحبينه وتسعدين معه.»

فأرادت زويا أن تصرخ قائلة إن هذا لن يحدث بتاتاً، ولكن، لأنها لم تشأ أن تحزن والدها، لذلك لم تقل شيئاً.

فقال بيار فالون بلهجة عملية: «علينا أن لا نتأخر عن العشاء فالحاكم أقام هذه الحفلة خصيصاً لأجلنا، كما ايضاً لأجل بليك، وهذا ما أشكره عليه طبعاً.»

وخرج من الغرفة بينما عادت زويا تجلس أمام المرآة تنظر إلى نفسها، ودهشت وهي ترى ان مظهرها لم يتغيّر.

فقد ساورها شعور بأن والدها قد سلبها شبابها، ولو أنها وجدت نفسها الآن عجوزاً تملأ التجاعيد وجهها، لما اندهشت.

ولكنها، ما زالت تبدو جميلة جداً، ما عدا انه كان في أعماق عينيها، الألم الذي لا يمكن وصفه.

* * *

كانت قاعة الحفلة، بثرياتها الضخمة التي تحمل مئات من الشموع، تعطر جوّها الأزهار على انواعها، كما كان هناك أيضاً، على طول الافريز المذهب الذي يحيط بالقاعة وهذا شيء لم تر زويا مثله من قبل.

وإذا كان نظام هذه القاعة بهذه الروعة، فكذلك كان الضيوف. إنها لم تتصور قط أنه يمكن للنساء أن يتحلين بكل هذه المجوهرات المتألقة، خاصة بهذه الأكاليل الرائعة التي على رؤوسهن.

كانت زوجة الحاكم ووصيفاتها يرتدين ملابس الحكام

الروسيين والمتمثلة بالثوب الحريري الأبيض مع الوشاح الأحمر المطرز بالذهب.

أما الرجال فقد كانوا مصممين على التفوق بالأناقة إذ كان كل رجل هناك إما يرتدي زياً عسكرياً رائعاً أو يزيّن سترته بالأوسمة والشرائط. أما بليك فلم يكن ليختلف عنهم كثيراً.

كان هناك الضبّاط بزيّهم الأبيض المذهّب، ويعتمرون القبعات البيضاء أو السوداء المصنوعة من جلود الخراف.

كانت أمسية أشبه بالحكايات الخرافية، وأدركت زويا ذلك منذ اللحظة التي دخلت فيها قاعة الطعام البالغة في الإتساع، بعد أن رأت أيضاً تلك المائدة التي تخطف الانظار، من الأطباق الذهبية الموجودة على المائدة ثم ولدهشتها الشديدة، وجدت أن مقعدها كان إلى يمين الحاكم نفسه.

وكان بليك إلى يمين زوجة الحاكم، بينما بيار فالون إلى يسارها، وأعلن الحاكم أنها ووالدها وبليك هم ضيوف الشرف.

وقال لها باسماً: «إن كل شخص هنا قد جاء خصيصاً ليراك.»

فسألته بصوت منخفض: «رغم أننا فرنسيين؟»

أجاب الحاكم: «مثلي أنا، فيا عزيزتي إن الموسيقى لهي لغة عالمية لا تعرف الحدود ولا الحواجز. ورأيي هو أن والدك هو ملك لامبراطورية أعظم بكثير من أية امبراطورية يحاول نابوليون بونابرت تأسيسها.»

ولاحظت ان والدها يستمتع كليًا بهذه الحفلة، وشعرت أنه بالنسبة إليها أيضاً، كان يمكن لهذه الأمسية أن تكون

أروع أمسية عرفتها حتى الآن، لولا أنها كانت تمثل نهاية الفصل الذي كانت قد حدثت بليك عنه عندما غادروا موسكو.

وفكرت متأملة، كم انه... فصل قصير، ولم تستطع منع نفسها من التفكير كم أن الفصول القادمة ستكون مملة، وكم سيؤلمها عدم رؤية بليك من جديد.

فكرت أيضاً كم أنها ستكون وحيدة، كما لم تكن كذلك من قبل، فالوحدة من دون حب، هي أبرد من أي شتاء في سيبيريا.

كان بليك يبدو في غاية الاناقة، بحيث انها وجدت من الصعوبة النظر إلى أي شخص آخر، وعندما دخلوا قاعة الرقص تقدم نحوها قائلاً: «لا يمكنني أن أطلب منك الرقص معي، يا زويا لأن ماريا منعتني من أن أقوم بأية حركة كهذه، ولكن هل لك في الجلوس والتحدث معي؟»

أجابت: «إنك تعلم أنني أحب ذلك.»

وعندما تحركت للسير معه إلى حيث أشار، جاء الحاكم ليطلب منها الرقص معه فكان مستحيلاً عليها أن ترفض ذلك، والذي كان بمثابة أمر ملكي.

وجاء بعد الحاكم آخرون لم تستطع تجنبهم، فأمضت أكثر من ساعة قبل أن يأتي إليها بليك أخيراً، وبدون أن ينطقا بأية كلمة، خرجا من القاعة وإلى الشرفة.

كانت السماء ترصعها النجوم، كاحلة، والحديقة بأضوائها الناعمة المخبأة بين الأزهار، بدت كقصيدة تعبّر عن الجمال، وخلف كل ذلك، كان هناك غموض البحر.

وعندما جلسا على احدى المقاعد، تمكنا من سماع الموسيقى الآتية من قاعة الحفلة. ومضت لحظة لم تجد

فيها زويا شيئاً لتقوله، إلى أن سألها بليك: «هل أنت قلقة؟»

«كيف... كيف عرفت هذا؟»

«أظن أننا ادركنا ومنذ وقت طويل، ان بإمكاني قراءة أفكارك.»

فلم تجب لأنها كانت ترجو، في هذا الوقت بالذات، أن لا ينجح في ذلك، وهذا ما جعلها تشعر بشيء من الخوف، ولكنها أخذت تؤنب نفسها بأن لا داعي لخوفها هذا.

ذلك أن ادراكه لما تعزفه على البيانو، شيء ومعرفته بأنها بعد ساعة أو نحوها، سيفترقان، هو شيء آخر.

وسألها بليك: «هل ستخبرينني بالذي يقلقك، أم عليّ أن أتكهن بذلك؟»

أجابت: «وما الذي... قد يزعجني؟ إنها سهرة رائعة... كما أنها تقدير كبير... لك.»

فأجاب: «ولكن طبعاً، هل يمكنني أن أخبرك كم تبدين جميلة؟»

كان في نبرة صوته شيئاً جعلها تتألم، ولكنها حدثت نفسها بأنه ربما يتعمد المجاملة فقط، وأرغمت نفسها على القول: «كل شخص كان بالغ في اللطف. لقد أهدتني زوجة الحاكم هذا الوشاح الرائع الجمال... وسأتذكر دائماً هذه اللحظات... في أوديسا.»

فقال بليك: «هناك لحظات أخرى سنتذكرها.»

سألته: «هل... ستتذكرها... حقاً؟»

لم تستطع منع نفسها عن هذا السؤال، إذ كانت بأشد الشوق إلى سماع الجواب.

فقال: «أظن ما سأتذكره، أكثر من أي شيء آخر، هو

عندما عدت إلى وعيي بعد تلك الاصابة، رأيت وجهك ينظر إلي.»

فشعرت زويا بالألم من جديد، لطالما تاقت نفسها إلى أن يتحدث إليها بهذا الشكل، ومع هذا لم تسنح الفرصة لذلك حتى الآن.

وتابع بليك يقول: «لديّ شعور بأنك كنت تناديني لأعود إلى وعيي، وذلك من بين الظلمات التي كانت تكتنفني، عندما أفكر في ذلك أعلم أنني كنت أسمعك رغم حالة اللاوعي التي كنت فيها.»

كان هذا حقاً ما أرادت أن يشعر به، وذلك عندما كانت تناديه، باستماتة، لأن يعود من غيبوبته.

سألها: «أتظنين أن هذا شيء من الممكن أن أنساه في حياتي؟»

«أرجوك... تذكرني... دوماً!»

نطقت بهذه الكلمات باندفاع وقد بدا التوسل على ملامح وجهها وهي تنظر إليه.

وتلاقت نظراتهما، وأخذ ينظر في أعماق عينيها، بينما عجز لسانهما عن التكلم بأي شيء.

وإذا بصوت كأنه من عالم آخر، يقول: «ها أنت هنا، يا آنسة فالون، إنني أبحث عنك. فالحاكم يريد أن يرقص معك رقصة المازوركا.»

مضت لحظة لم تستطع زويا فيها أن تفهم شيئاً ثم وكأنها عادت إلى الواقع، وقفت وهي تقول بجهد لضابط الحرس الذي كان يبحث عنها: «هذا... شرف كبير لي.»

«دعيني أرافقك إلى القاعة، يا آنسة.»

www.rewity.com

فأجابت: «أشكرك.»

ولم تستطع أن تنظر إلى بليك، كانت تشعر وكأنها تُجرّ بعيداً عنه، وأرادت أن تمسك به تتوسل أن لا يدعها تذهب.

ولكنها، بدلاً من ذلك، لحقت بضابط الحرس إلى القاعة.

وبعد ذلك، كان من المستحيل عليها التخلص من الذين تحلّقوا حولها.

لم تستطع التخلص منهم، وكان الوقت يمر بسرعة. وأخذت تنظر حولها بذعر بينما كان كل ما كانت تريده هو أن تمضي الدقائق الأخيرة مع الرجل الذي تحب، ولكنها لم تر له أثراً.

وإذا باليأس يتملكها عندما لم تعد ترى أثراً لوالدها هو الآخر، وما لبثت أن أدركت أين ذهب. وتصاعد قرع الطبول على الدرجات في القاعة، فظهرت فرقة الغجر تتألق بألوان مختلفة.

أخذ الضيوف جميعاً بالابتعاد عن وسط القاعة، فجلست النساء المسنات على الكراسي والأرائك عند طرف الغرفة، أما الرجال فقد وقفوا قريباً منهن أو تحلقوا في جماعات، ينتظرون ما قد أعدّه مضيفهم احتفاءً بهم.

وعندما أخذت النساء الغجريات، بتنانيرهن الواسعة وعقودهن الذهبية وأساورهن المجلجلة، بالرقص بأقدامهن العارية على أرض القاعة، أدركت زويا أن لحظة ذهابها قد حانت.

ونظرت حولها مرة أخرى آملة أن ترى بليك رغم أنها كانت تعلم أنها بذلك لن تجني أية فائدة خاصة انه قد فات الأوان للتحدث معاً، ثم ماذا هناك ليقال عدا عن أنها تحبه؟

كان من السهل عليها، والكل مستغرق في النظر إلى الغجريات، أن تتسلل خارجة من أحد أبواب الشرفة حيث تهبط منها على الدرجات الرخامية والى الحديقة مباشرة.

لم يشاهدها أحد، فاجتازت الباحة الخضراء القائمة بين أحواض الزهور، إلى أن وجدت مجموعة أخرى من الدرجات، وعندما وصلت إليها، نظرت إلى الأسفل، فرأت كما كانت تتوقع، عربة واقفة.

كانت مقفلة وعلى مقعد القيادة رجلان نهض أحدهما عندما رآها وتوجه ليفتح لها الباب.

وصعدت زويا درجات العربة شاعرة بأنها خسرت كل شيء. دخلت إلى العربة وجلست في المقعد الخلفي دون أن تلتفت إلى حيث كان والدها جالساً في انتظارها. أقفل الخادم باب العربة، ثم صعد إلى مكانه بجانب الحوذي، بعدها، انطلقت الجياد في طريقها.

ومالت زويا قليلاً، لتلقي النظرة الأخيرة من خلال النافذة على الحديقة التي تركتها منذ قليل، وهي تهتف في قلبها: «وداعاً... يا حبي... يا حبي الوحيد الآن وإلى الأبد.»

وعندما عادت تستند إلى الخلف، تغالب الدموع التي اغرورقت في عينيها، سمعت صوتاً عميقاً يسألها: «لمن تقولين وداعاً، يا زويا؟»

صرخت بذعر ودهشة... ذلك أن الذي كلمها لم يكن والدها بل بليك، وأدارت إليه وجهها، وعلى ضوء مصابيح الطريق، رأت عينيه تنظران في عينيها.

مضت لحظة لم تستطع فيها أن تتكلم، ثم ما لبثت أن سألته بصوت مضطرب: «لماذا... أنت... هنا ماذا حدث؟»

فأجاب: «في الواقع، هذا سؤال ينبغي أن أوجهه أنا إليك. ما الذي جعلك تتصوّرين ان بإمكانك الابتعاد عني دون أن أعلم بذلك؟»

«ولكن... ولكن والدي قال...»

فقاطعها قائلاً: «إن والدك الآن على متن السفينة التركية والتي ستأخذه إلى فرنسا، في هذه المناسبة هناك سؤالاً واحداً سأوجهه إليك، يا زويا وأريدك أن تجيبيني بصدق.»

فهمست: «وما... هو؟»

فأجاب: «إنه بسيط جداً، أريدك أن تخبريني من تحبين أكثر؟ والدك أم أنا؟»

مضت لحظة ظنت خلالها أنها لم تسمعه جيداً، ولكنها عندما رفعت عينيها لتنظر إليه، رأت على وجهه تعبيراً لم تره مرة من قبل.

وعاد هو يقول: «إنه سؤال بالغ الأهمية، لأن الخيار هو لك، فإما أن آخذك الآن إلى والدك فتعيشين معه، أو تبقين معي.»

وكان من المستحيل على زويا أن تتكلم، فتابع يقول: «إن الأمر يتناول الحب فقط، وهذا ما أريدك أن تجيبيني عليه.»

فقالت: «إنني... أحبك... من كل قلبي، وبكياني... ولكن...»

فقاطعها قائلاً: «كلمة لكن هذه لا أريد سماعها، ما أريد معرفته، هو اذا كنت تحبينني حقاً.»

فقالت: «إنني... أحبك.»

بدا وكأن هاتين الكلمتين قد صدرتا من أعماق نفسها.

فقال: «وأنا أحبك، لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. ولكنني لم أشأ أن أخبرك عن حبي هذا قبل أن أتعافى.»

فسألته: «أيمكن أن... يكون هذا صحيحاً؟ هل أنت... تحبني حقاً؟ لا أستطيع تصديق ذلك.»

«إنني أحبك. وحيث أنك اخترت، فنحن سنذهب مباشرة الآن إلى حيث بامكاننا ان نتزوج.»

فسألته متلعثمة: «إلى حيث... نتزوج؟»

«إن هذا سيجعل الأمور أكثر سهولة، يا حبيبتي عندما نسافر إلى انكلترا، ويجب أن تعلمي أنني سبق وحصلت على موافقة والدك.»

«وهل يعرف... والدي... أنك عازم على... ذلك؟»

فأجاب: «عندما علمت بأنك ستتركينني، صممت على منعك عن الرحيل.»

«وكيف عرفت... بأنني سأرحل؟»

«لقد أخبرتني أنت.»

«أنا... أخبرتك؟»

فابتسم قائلاً: «من الصعب عليك جداً أن تخدعيني، يا عزيزتي. عندما كنت أراقبك أثناء العشاء، أدركت ما كنت تفكرين به، وعندما جلسنا على الشرفة معاً، اصبحت واثقاً أكثر بالذي تعتزمان فعله.»

فسألته: «وكيف... أدركت ذلك؟»

«هل من الممكن أنك أنت ومن بين كل الناس، توجهين إليّ مثل هذا السؤال؟»

فأطلقت ضحكة قصيرة وهي تتذكر كيف تمكن من قراءة أفكارها عندما عزفت له لأول مرة.

وتابع بليك يقول: «لقد أدركت عند ذلك، بأنني كنت مقصراً في عدم التصرف بسرعة، فبحثت عن والدك وأخبرته بما أريد، فوافقني على أنه، وبالنسبة إليه، يرى في هذا حلاً ممتازاً لكل ما كان يشغل باله.»

فسألته: «وهل ما زال والدي... عازم على الذهاب إلى فرنسا؟»

أجابها: «انه لا يريد تضييع مثل هذه الفرصة السانحة، إذ أن عثوره على سفينة حيادية ليس بالأمر السهل. وأظن ان هذه لباقة منه حيث يدرك رغبتنا في أن نكون معاً.»

وسألها وفي صوته شيء من القلق: «ألا تريدين أن تكوني معي، يا حبيبتي؟»

ولم يعد بحاجة إلى جواب، وهو يراها تومىء برأسها.

ووقفت العربة. فقال بليك: «لقد رتّب لنا أحد ضباط حرس سيادة الحاكم الأكفاء كل الأمور. لقد فكرت، يا غاليتي في أنك لا بد تفضلين أن يكون زواجك بنفس الطريقة التي تزوجت فيها والدتك، ويبدو أن هذا ملائم تماماً كوننا في روسيا.»

فقالت بصوت خافت: «إنك تعلم... أن ذلك سيجعلني سعيدة.»

وفتح باب العربة فرأت أنهم يقفون خارج باحة معبد صغير، بنيّ على الطراز الروسي القديم، طليت جدرانه بألوان مشرقة كما كان له قبب صغيرة ذهبية ترتفع الواحدة فوق الأخرى.

شعرت بسعادة لا توصف، وهي ما زالت لا تصدق بأنها حصلت أخيراً على الرجل الذي تحبه.

* * *

وبعد ان تمّ الزواج بينهما، شعرت زويا وكأنها في حلم وأنها لا يمكن أن تكون حقاً قد تزوجت من بليك.

ولكن ذراعه الذي احاطها، أكّد لها انها ليست تعيش حلما من الأحلام، بل تعيش واقع جميل لا نهاية له.

وتمتم يقول: «يا لزوجتي الصغيرة الحلوة.»

فقالت بتوسل: «قل هذا... مرة أخرى، فقد كنت متأكدة... لا بل مقتنعة بأنك لن تستطيع الزواج مني، لدرجة انني... لا اصدق بأنني أصبحت زوجتك حقاً.»

فأجابها: «بعد برهة قصيرة سأجعلك واثقة كل الثقة من ذلك.»

«ألن... تندم... أبداً... لأنك تزوجتني؟»

«فقط إذا أنت توقفت عن حبي.»

فقالت بلهفة: «سأحبك حتى آخر لحظة من حياتي.»

«يا لزوجتي الغالية.»

وعندما توقفت بهما العربة، شعرت زويا بأسف لأن عليهما أن يعودا إلى الواقع الأرضي.

كانت تفترض أن الحاكم وزوجته سيكونان بانتظارهما لتهنئتهما بالزواج، وهذا ما جعلها تشعر بالانكماش على نفسها لمجرد التفكير في أن هناك، حالياً من سيتدخل في يومها السعيد.

ولكن، عندما فتح باب العربة، أدركت أنهما ليسا أمام

www.rewity.com

القصر بل أمام منزل أصغر بكثير منه وقد بنيَ أيضاً بحجارة بيضاء.

وأدركت فجأة أنه أحد تلك البيوت الصغيرة المبنية على أرض الحاكم والمخصصة لضيوفه المرموقين الذين يحضرون عادة برفقة عائلاتهم وخدمهم.

ومرة أخرى، علم بليك بما تفكر فيه، فقال: «سنبقى هنا في الوقت الحاضر، يا حبيبتي إنني أرغب في ذلك مثلك إن لم يكن أكثر.»

وجذبها إلى داخل المنزل، بينما سمعت هي صوت العربة مبتعدة.

كانت الأزهار في كل مكان، تعطر الجوّ برائحة عطرها المنعش، كما اظهرت الأنوار ما ضمه المكان من أثاث ونفائس.

ادخلها بليك إلى غرفة الجلوس ومن ثم إلى غرفة مضاءة بشموع قليلة كانت تحتوي على سرير رائع ينسدل على جوانبه قماش حريري فيروزي اللون.

كان السقف مزخرفاً بصور أبطال الإغريق القدماء، بينما كانت النافذة قد أزيحت ستائرها، ما جعل بإمكان زويا أن ترى النجوم.

وقف بجانبها امام النافذة، ومضيا ينظران إلى البحر الممتد وقد عكس ضوء القمر صفحته فبدا كمرآة فضية.

وهمست تقول: «لا يمكن... أن تكون... هذه حقيقة.»

فأجاب: «بل انها الحقيقة بعينها، يا حبيبتي، وقد اصبحت زوجتي أخيراً أشعر وكأنني أمضيت حياتي في البحث عنك، والآن بعد أن وجدتك، لن أفقدك من جديد.»

«ما أعذب هذه الكلمات... التي تسمعني اياها... إنها رائعة كما ان هذا ما كنت أشعر به ايضاً... في نفسي وفي قلبي... ولكنني اعتقدت أنه... عليّ الرحيل... عنك.»

فسألها: «كيف استطعت التصوّر، أن ثمة شيئاً أكثر أهمية من حبنا؟ كيف استطعت أن تضعي في اعتبارك، لحظة واحدة أي أمر آخر؟»

تنهدت زويا وقالت: «اعتقدت انك مثل أفراد الطبقة الارستقراطية المتغطرسة التي رأيتها في بيترسبورغ، والتي حكمت على أمي بالإدانة لأنها هربت منها.»

فقال: «ما يهمنا أكثر من غيره الآن، هو الحب... حبنا، يا غاليتي... وأريدك أن تخبريني بأنك تثقين بذلك.»

فقالت زويا: «لقد كنت دوماً... أثق بذلك ولكنني ظننت وأنت بهذه الأهمية... وبما ان والدي كان في أعين الروسيين في غاية الجرأة والوقاحة لأنه تزوج من أمي، بأنك لن تراني أبداً الزوجة... المناسبة لك.»

فقال: «إنك لست زوجتي فقط، ولكنك مثلي الأعلى في النساء والتي سأبقى على حبها طوال حياتي.»

«افرض أنني... قد اخيّب أملك؟»

«أراهن بحياتي على انك لن تفعلي ذلك أبداً.»

نبرة الصدق التي تجلت في صوته وهو يقول ذلك، جعلت زويا تشهق بسرور وهي ترفع وجهها إليه.

نظر في عينيها مطوّلاً، فأدركت أنه يفتش في أعماق قلبها عن الذي يبحث عنه دوماً.

«أحبك...»

فقال: «وأنا أحبك، يا زوجتي الحلوة... أحب جمالك،

وتدهشني افكارك، أما نفسك التي تتحدث إليّ من خلال الموسيقى، فهي تذهلني كثيراً.»

«هل حدثتك... عن حبي؟»

«لقد فهمت ما كنت تشعرين به بالضبط، ولكن أخبريني الآن بأنك تحبينني.»

«إنني... أحبك... من أعماق قلبي.»

وغمرتها عظمة الحب كما يغمر ضوء القمر البحر، وارتقى بهما نحو النجوم.

تـمـت

قراءة ممتعة للجميع
بلا عنوان

فتاة الثلج

بينما كان نابليون في موسكو ينتظر عقد الهدنة، كان القيصر الاكسندر قد أجابه بأنه لا يستطيع أن يتفاوض ما دام جندي واحد من الاعداء على ارض الوطن.

وبعد خمسة أسابيع لم يبق أمام نابليون سوى خيار الانسحاب بجيشه في رحلة طويلة الى الوطن. ولكنه فعل ذلك بعد فوات الاوان.

ففي الرابع من تشرين الثاني ابتدأ تساقط الثلج، وبعد يومين كانت الحرارة قد انخفضت الى درجات كثيرة تحت الصفر. وكانت نتيجة النقص في الطعام والكساء ووحشية الفلاحين الروس، أن تغطت الطرق بالجثث والبنادق والجياد. وهكذا، لم يستطع متابعة الطريق الى فرنسا.